إِتْــــنــــا

ETNA

د. أسماء غريب

إِتْـــنـــا

ETNA

رحلةُ الظّهور المُقَدّس

(من الحضرة الهيروغليفيّة إلى الحضرة المهدويّة)

١٤٤٤هـ / ٢٠٢٣م

إتْـــنــــا
رحلةُ الظّهور المُقَدّس
(من الحضرة الـهيروغليفيّة إلى الحضرة المهدويّة)
د. أسماء غريب
العراق/ بابل: دار الفرات للثقافة والاعلام، ٢٠٢٣م
/07707311570 ali.abas505@yahoo.com
م/ و
٢٣٨٠/ ٢٠٢٣م
ISBN: 978-2244-5005-8-9
المكتبة الوطنية/ الفهرسة

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٢٣٨٠) لسنة ٢٠٢٣م

إتْـــنــــا

رحلةُ الظّهور المُقَدّس

(من الحضرة الـهيروغليفيّة إلى الحضرة المهدويّة)

د. أسماء غريب

دار الفرات للثقافة والإعلام – العراق – بابل
بالاشتراك مع دار سما للطبع والنشر والتوزيع
١٤٤٤هـ / ٢٠٢٣م
Al-Furat House for Education and Information
Iraq – Babylon

بسم الله الرحمن الرحيم

((هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ
إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا))

سورة الفتح، الآية: ٤.

جوهرةٌ في الأعماق هي الدكتورة أسماء غريب، غيرُ مُكتَشَفة، لا يعرفها إلّا مَن يعرفها. تفضّلُ العزلةَ حينَ تكونُ حُبلى بأدوات التنقيب البارعة. وللعُزلةِ عندها لونٌ آخر (أسيرُ مع الجميع وخطوتي وحدي). من بعيد، وحدها ترصدُ ضَجّةَ المَيدان، مُحَصَّنةً من شراك القالِ والقيل، غيرُ مكترثة بالكثرة؛ تسوطهم الغرائزُ والتفاهات، كأنّي أراها متكَهّفة في غرفتها، تحفّها الملائكة وكأنَّ كيانها قد رَوَّضَ وحش الجَسَد ومخالب الاحتياج، تقرأهم عن بُعد وهم عرضة للّهاث المتناهي.

وكـ (مارسيل بروست) الذي انزوى بغرفتهِ في باريس وغلّفها بعازلٍ وكتب ومجلدات (البحث عن الزمن الضائع). وحينَ سُئِلَ بيكاسو (لماذا تترك ضيوفكَ الكُثر في منزلك وتقصدُ ماتيس؟ قال لا يفهمُ فنّيَ إلّا هوَ، ولا أحدَ سوايَ يدرك قيمة فنّه، أمّا الآخرون فيقصدونني لغاية، ولا يشكّلونَ صداقة حقيقية (وحيدٌ

مِنَ الخلّان في كلّ بلدةٍ.. إذا عظُمَ المطلوب قلَّ المساعدُ- المتنبي). (كذلكَ جدِّي ما أصاحبُ صاحباً ..مِنَ الناس إلّا خانني وتغيّرا- إمرؤ القيس). (آهٍ، حتى ما من يَدٍ صديقة- رامبو)

وحينَ يكونُ كيانها عرضةً لموجات وذبذباتٍ خفيّة لا تُرى ولا يرصدُ غورها أحد، يقرّرُ الجسدُ؛ الجسدُ وحدهُ الخروج من عزلتهِ لينشرَ سُبحات الجمال نيابةً عنها، فتهتزُّ ولا تقف فلا يكون لها علاج سوى الكتابة!

د.هيثم كاظم المحمود

كلٌّ في هذا الكتاب سيجدُ صاحبَ زمانه، لا يهمُّ بأيّ ميثولوجيا يعتقد، أو إلى أيّ دين أو مذهب ينتمي؛ فالمُسلمُ سُنّياً كان أو شيعيّاً سيجدُ فيه الإمام الثّاني عشر (ع)، والنّصرانيُّ سيرى فيه المسيح (ع)، واليهوديّ سيعثر فيه على موسى (ع)، والبوذيُّ سيظهر له فيه كريشنا، وصاحب الرّوح الهيروغليفيّة سيرى فيه حورس، وهكذا دواليك من الميثولوجيّات الدينيّة التي تتحدّثُ عن هذا البطل المُقَدَّس. ولكلٍّ مَلِكُه المُنْقِذُ الّذي يتفرّدُ داخل كلّ روحِ بخصائص معيّنة تجعله مختلفاً لدى كلّ فرد أو كائن حيٍّ مهما كانت مملكة الحياة التي ينحدرُ منها، بما فيها مملكة الحيوان. وهذا التفرّد والاختلاف يأتي من اختلاف كلّ إنسان عن أخيه سواءً في الفكر والشّخصيّة أو ظروف الولادة والمنشأ وتجارب الحياة وخصوصيّة العقيدة والإيمان.

سيّدُ الأبجديّات كلّها هذا الإمام المُخَلِّص، عرفتُه نقطةً،

ثمّ جعلتُ منه حرفاً، وحوّلتُه فيما بعد إلى كلمة حيّة هي العقل الخلّاق. لأجل هذا أدركتُ خلاصي بالكلمة. وحدانيٌّ مَلِيكِي في ظهوره، قيوميٌّ في حضوره، وكونيٌّ في صفاته ولغاته؛ عاشق للإنسان، ويسعى أبداً إلى إفشاء السّلام والأمان في كلّ الأكوان.

د. أسماء غريب

كما حدث في كتاب (دزاگرا / إمامُكَ المُنْتَظَرُ كما لم يُخْبِرْكَ عنه أحد)، بحيثُ جمعتُ لكَ آنذاكَ فيه الأجزاء الستّة كلّها، بعد أن كانت قد رأت النور بشكل منفرد وفي فترات متباعدة، تجدني أيضًا هنا قد قمتُ بالشّيء نفسه، وأقصدُ بهذا أنّني أضفتُ شروحات وفصول ولوحات وتفاصيل جديدة، لما سبق وجاء في إصدار (صاحب العصر والزّمان: من النّطفة إلى الظّهور)، وذلكَ لتكتمل لديْكَ أنتَ الصّورة، وأختمَ أنا وبشكل نهائيّ هذا السّفر المَهدَويّ بكتاب اخترتُ له كعنوانٍ (إتنا، رحلةُ الظّهور المُقدّس / من الحضرة الهيروغليفيّة إلى الحضرة المهدَويّة)، وهو الّذي بين يديْكَ اليوم.

المُؤَلِّفَة

الفصل الأوّل

مهَمّة جديدة

هل غاب المهديُّ حقّاً؟ إذا كانَ الأمرُ كذلكَ، فأين هُوَ يا ترى؟ ولماذا هُو مُنْتَظَرٌ إلى اليوم، بل مَن هُم هؤلاء الّذين حافظوا على وعد انتظاره مهما طال الزّمان أو قصر؟ أمجانين هُمُ، أم سادةُ العقلاء ممّن قذف البارئُ في قلوبهم النّورَ المبين؟ هذه بضعُ أسئلة ضمن محيط هادر من علامات الاستفهام الّتي يطرحُها الإنسانُ الآن، وهو على بوّابة عصر رهيب تمّتْ فيه رقْمَنَةُ كلّ شيءٍ، باحثاً عن الخلاص من مصيره الغامض، وراجياً وهو يتذكّرُ هذا المُنْقذَ الّذي ورد اسمه في العديد من الميثولوجيات والنّصوص الدّينيّة، أنْ يفهم عنه بعض الأشياء والتّفاصيل، لكنّه سرعان ما يعود في كلّ رحلة بجبّة خاويةٍ، لا جواب فيها ولا شفاء ولا ضوء تتبلج معه أولى بشائر الحريّة والنّجاة. والغريب في الأمر أن حتّى مُعظمَ أولئكَ الّذين آمنوا به كفكرة واعتنقوه كمُعتَقَد، لا يعرفونه حقّ المعرفة، ولا يقدّرونه حقّ قدره، فهُم لمْ يروه حقيقةً، ولا تذوّقوا تجربة ظهوره بين أيديهم واقعاً لا خيالاً، وحتّى إذا سلّمنا جدلاً أنّ لديهم بعضُ المعرفة

به، فهي مستقاة من الكتب، قديمة كانت أو حديثة، ومن الحكايات التي ينسجها النّاس البسطاء عنه، وهذه مشكلةٌ، بل معضلة كبرى تُظهِرُ كيفَ أنّ الإنسانَ مازال لم يخرج بعدُ مِن وثنيّته الأولى، فهو أينما يولّي وجهه يرى الأصنام قائمةً: أصنامَ التديّن المُزيّف، وأصنام الإيمان الظّاهريّ المُمَارَسِ في صروحِ العبادة الخارجيّة سواء كانت في كنيسٍ، أو كنيسةٍ أو مسجد أو حتّى من خلال زيارات أضرحة الرّبّيّين والقدّيسين والأولياء وغيرهم على حسب اختلاف الديانة. والعبادةُ الخارجيّة تعني التّطبيقَ المادّي لا المعنويّ لكلّ تلكَ الطّقوس الّتي لا تنفعُ الإنسانَ في شيءٍ، ولا تتسبّبُ إلّا في المزيد من تدهوره الرّوحيّ، وهذا يحدثُ لأنّه لا أحد جرّبَ العبادة من أعماق النّفس، ومازلنا في عهدٍ هيكلُ الإنسان فيه مصبوغ بطلاء ذهبيّ برّاقٍ خدّاع، وهذا حال من لا يعرف خالقه عبر التّجربة الدّاخلية حتّى وإن كان محسوباً بين النّاس من كبار المتمكنّين في الدّين وأصوله وقواعده، فالفكر النّظري وحده لا يكفي، إذ لا بدّ من تجربة جوّانيّة عميقة تُمكّنُ الإنسان من أن يرى خالقَهُ، وتساعده على أن يستوعب فكرةَ أنّه هو نفسهُ الكتابُ المسطور واللّوح المحفوظ، وأنّى يحدثُ هذا والكثير من النّاس عميان، ولا أحد بينهم رأى النّور حقيقةً، ومَن يعتقدُ أنَّ دروس الوعظ والخُطَب

ذات الكلام المُنَمَّقِ المُزَخْرَفِ هي السّبيل الوحيدة للهداية الصّادقة فهو واهمٌ جدّاً، انظروا إلى العالم من حولكم، وستجدون أن أكثر الأراضي قداسةً، هي الأكثر معاناة من الحروب والفساد السّياسيّ والأخلاقيّ في العالم بأسره، ولا فرق في هذا بين النّاس جميعاً مهما اختلفت دياناتهم ومعتقداتُهُم ولغاتهم وانتماءاتهم السياسية والجغرافيّة. أقول هذا وأنا أرى الكثير من الخَلْقِ لا يعرفُ لليوم كيف يرتبطُ ببارئه وبالتّالي بالمهديّ الّذي لا غاب يوماً، ولا هو بحاجة لمن ينتظرُهُ، إنّما بابه مفتوحة للجميع، ومن يريده فسيسعى إليه، بكلّ ما فجَّرَ اللهُ في قلبه من نور، مصداقًا لقوله عزّ وجلّ: "مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ" (١).

وإنّي لأعلمُ أنّك ستجدُ في كلماتي هذه نبرةً غريبة عنكَ، وأنتَ تسمعُني أقول بأنّ المهديّ ماغاب يوماً، وإنّه الحاضرُ أبداً، على خلاف ما تحدّثُكَ به كُتُبُ الماضين والرّاحلين من أهل الفكر، ولكنّي سأسألكَ وأقول: هل قرأتَ حكايات الماضين عن المهديّ بقلبكَ الجوّانيّ أم بعقلكَ الظّاهريّ فقط؟ وهل تساءلتَ ذات يومٍ عن أصل هذه الحكايات المسطورة عن هذا الإمام العجيب؟! أنا يا صاحبي سألتُ نفسي مراراً وتكراراً، ولم يكن سؤالي من قبيل مَنْ يكون هذا المُخَلِّص؟ وهل الإيمان به

ضرورة واجبة أم حريّة شخصيّة؟ وهل يكفي أن أكون من المنتمين إلى مذهبٍ دينيّ معيّن لأعاين ظهوره ووجوده الحقّ في حياتي؟ لا، لا، يا عزيزي، إنّما سؤالي كان واحداً لا غير: مَنْ هي الحكومة الإيمانيّة العميقة الّتي نسجتْ لنا كلّ هذه الحكايات عن هذا الإمام المُبجَّل؟ وجاءني الجوابُ حقّاً عن هذا السّؤال الّذي طرحتهُ منذ سنوات طفولتي البعيدة، حينما كنتُ بإحدى الحافلات العمومية في رحلة مدرسيّةٍ إلى مدينة أخرى طلباً للرّاحة والاستجمام، مازلتُ أذكُرُ كيف أنّه حينما وقفت الحافلةُ في إحدى المحطّات القرويّة لينزل بعض الرّكّاب، صعد في فترة الاستراحة هذه، رجلٌ عجوز بجلباب مغربيّ أبيض قصير ونعل صفراء من الجِلد المتآكل، وفي يده بضعُ تصاوير صغيرة يوزّعها على الرّاكبين مقابل أجر زهيد، طلبتُ أكثرَ من واحدةً، وقد أخبرني قلبي بأنّ صعود هذا الرّجل وتجواله بين الحافلات كان طريقته في التسوّل العفيف، وما إن انطلقت حافلتنا من جديد، حتّى غبتُ في عوالم تلك التّصاوير الملوّنة، وكانتْ مواضيعها متنوّعة، بين مناظر طبيعيّة خلّابة، وأخرى فيها الأطفال يلعبون، وثالثة فيها رسومات عن التّاروت المغربيّ، ورابعةٍ كان فيها رجلٌ برداء أخضر فوق حصانٍ أسود، وفي يده سيف بحدّين وفوق رأسه دائرة بيضاء، كُتبَ في وسطها اسم

الجلالة (اللّه). ثمّ خامسةٍ فيها الرّجل نفسه، لكنّه هذه المرّة وهو يغرس سيفه الغريب في صدر رجل آخر له قرنان كُتبَتْ بينهُما عبارة (رأس الغول). ولمْ أكُ آنذاك أعلمُ لماذا هذا السّيف له رأسان، ولا لماذا ذاكَ الرّجل لهُ قرنان؟ لكن سعادتي الكبيرة بهذه الصّور التي كانت بحجم الكفّ، كانتِ الشّيءَ الأهمّ في تلكَ اللّحظات كلّها، لدرجة أنّني حافظتُ عليها حتّى بعدَ عودتي من السّفر وخبّأتُها في إحدى كرّاسات الدّراسة. بل كنتُ أخرجها من حين لآخر وأحدّقُ كثيراً في صورة صاحب السّيف المزدوج الحدّ، ورأس الغول المزدوج القرن، ولا أعرف لماذا كانت تحضرني أثناء تلك اللّحظات الحكاية الّتي روَتْها لي جدّتي في إحدى زياراتها لنا، وكانتْ بطلتها الفتاة هايْنة التي عُرفتْ بصراعها المرير هي الأخرى مع غول من نوع آخر (٢)!

ومرّتِ السّنواتُ طويلةً عريضة، وكبُرتُ وحدثَ أنْ جعلتُ من بيتي مسجديَ الوحيد، فما كنتُ أذهب أو أخرجُ للصّلاة في غيره، وما كنتُ أبداً من زوّار الأضرحة ولا الشّيوخ ولا المراقد (٣)، حفاظاً على مبدأ السّتر الإلهيّ، وكانت النّتيجة أنّ أصبح محرابيَ المنزليّ بوسع الكون أو ربّما أكثر، بل أصبحتُ أحلّقُ بفكري في ملكوت الله بأجنحة لا يعلمها سوى بارئي! لكن حدث لي ضمن معارجي الرّوحيّة شيءٌ جعلني

أتفكّر بشكل أكثر عُمقاً في خالقي: رؤيا ظهر لي فيها مَلِكٌ فرعونيّ الشّكل والمظهر والزّينة والحليّ، ومعه رجل آخر يبدو وكأنّه مستشارهُ الخاصّ، قال له بالحرف: "إنّي أريدها لي، لكن قبل ذلك عليكَ أن تُدخلها إلى الفُرن، وتتركَها فيه إلى أن تنضج وتتصقلَ أكثر فأكثَرَ لتصبح عارفة البلاط الأولى". وفعلاً أدخلني المُستشارُ إلى فرن كبير بألسنة لهبٍ متأجّجة، لكنّها كانتْ لا تحرقُ فِيَّ، ولا منّي شيئاً، وكنتُ كلّما أبديتُ لهُ رفضي لأمر خطوبة الملكِ لي، قال لي:"إنّه أمر لا خيار لكِ فيه، ولا أستطيع أن أفعل لكِ إزاءه شيئاً، هكذا تجري الأمور منذ الأزل". وبقيتُ في الفرن إلى ما شاء الله، تارةً أجلسُ وتارة أنامُ، وتارات أمشي، وكان يزورني فيه فراعنة كُثُرٌ مِنْ كلّ صوب وحدب، فيهمُ الملوك، وفيهم عامّة النّاس، فالفرن كان بحجم كوكب الأرض أو ربّما أكبر، لكنّي مازلتُ للآن أتذكّرُ جيّداً وبشكل دقيق صورة شابٍّ فرعونيّ جاء لزيارتي، وكان يبكي بدل الدّمع دماً، وهو يراني وسط ألسنة النّار وهي لا تحرقُني أبداً، وأنا أردّدُ: "يا نار كوني برداً وسلاماً عليّ، كما كنتِ قبل ذلك على إبراهيم (ع)." لا أعلمُ مَنْ كان ذاك الشّابُّ، لكنّ دموعَه كانت تقول إنّه من العشّاق الكبار، فقد رأيتُه كثير الذِّكْر، شديدَ البُكاء، باهرَ الحُسنِ وفاتنَ الجمال (٤)!

وبعد هذه الرّؤيا توالت عليَّ وضمن سنوات متباعدة رؤى أخرى، كنتُ أراني في بعضها بين يدي أطبّاء مِن الفراعنة، وهُم يُشَرّحون جسدي، ويطبّونه بما يليقُ به، وأذكرُ كيف أنّهم كانوا يركّزون على ما بين العينيْن وفوق الجبين، وعلى بطني، ثمّ صدري الّذي شقّوه لأكثر من مرّة. كانت عيونهم تبرقُ بالمحبّة وتتدفّقُ بطاقة لا أعتقد أنّ أحداً يستطيع تحمّلَهَا.

هل عليّ أن أتساءل كما ستفعل الآن أنتَ أيّها القارئ؟ هل عليّ أن أقول مثلكَ: "لماذا الفراعنةُ يا أسماء؟" بل "من أيّ عصرٍ أنتِ قادمة؟" وهل أنتِ من هذا الزّمان، أم من أزمنة بعيدة جدّاً؟"، و"لماذا هذا القُرنُ الغريب؟"، "ومن هُم هؤلاء الأطبّاء؟"، و"هل هذا كلّه من تأثير كتاب ما قرأتِه من قبل، أو ربّما فيلم رأيتِهِ، أو حكاية سمعتِها من قبل، أم ماذا؟". دعني أقُلْ لكَ يا عزيزي، إنّني ممّن لا يُشاهد التّلفازَ إلّا قلّما ندر ولضرورة علميّة غالباً ما تدخل في إطار أبحاثي ودراساتي، وإنّي لليوم لا أعرف ما يبثُّ هذا الجهازُ من أخبار ولا أفلام أو قصص ولا غيرها من الحوارات التي لا أوّل لها ولا آخر، وإنّ لي نظاماً في حياتي اليوميّة أشبه بنظام الرّاهبات المنعزلات في المعابد، وإذا كان هناكَ هذا الشّيءُ الّذي تتساءل عنه ويُحيّرُكَ فهو لا شكّ قادم من دواخلي الجوّانيّة، وإذا كان لا بدّ أن نتحدّث عن تأثير

خارجيّ ما، فحتماً ويقيناً سيكونُ الأمرُ عائداً لسبب واحدٍ لا غير: الكتابُ الّذي أقرؤُهُ بشكل متكرّر ومستمرّ في روتيناتي اليوميّة، وأعني به القرآن الكريم!.

وبناء على ما صرّحتُ لكَ به الآن، فإنّ أسئلتي ستكون مختلفة عن أسئلتِكَ بعضَ الشّيء، ولن يركبني الغرور وأعتقدَ في نفسي تميّزاً أو اختلافاً ما، ولن أقول حتّى إنّني ربّما قد أكون من أصل فرعونيّ، فهذه كلّها أمور لا تليقُ بذوي الحصافة والرّصانة الفكريّة والعرفانيّة، لكنّي سأقول لك باختصار شديد جدّاً: إنّ هذه الرّؤيا رسالة ومفتاح، وهي لا تعنيني بشكل مباشر، وحضوري فيها ما هو سوى رمزٍ عرفانيّ كبير، يدفعني للتّساؤل لا عن سبب الرّسالة، وإنّما عن فحواها، ولا عن علاقتي بالرّؤى الّتي تلتها وإنّما برحلة البحث عن المفتاح الذي سيساعدنا معاً؛ كاتبةً ومتلقّياً على فكِّ شيفراتها وقراءة رموزها بلغة عصريّة سليمة، ولعلّ هذه هي حقّاً مهمّة هذا الكتاب الجديد!

الهوامش:

(١) الأعراف: ١٧٨.

(٢) حكاية شعبية مغربية تحكي عن فتيات كنّ يخرجن لجمع الحطب في الغابة، ويحرصن على العودة قبل مغيب الشّمس حتّى لا يتعرّضن لأذى الغول المخيف، لكن حدث أنّه في يوم من الأيام، عثرت كلّ واحدة منهن أثناء جمع الحطب على هديّة رفيعة القيمة، إلّا هاتّنة وكانت أصغرهنّ وأشدّهنّ بهاءً وجمالاً، لم تجد سوى سيخاً من المعدن، ما إن وضعته في رزمتها حتّى بدأ يتفكّكُ الحطب الّذي جمعته، وبقيت تحاول أن تلمّ ما يتساقطُ من رزمتها، لكنّها لم تفلح في ذلك، إلى أن داهمها اللّيل، وفرّت الفتيات الأخريات وبقيت هي وحيدة ترتعد فرائصها من الخوف، وحينما ظهرَ الغول فجأة لم يؤذها بل على العكس من ذلك تماماً، ساعدها على جمع الحطب، ثمّ تركها تعود إلى بيتها واعداً إيّاها بأنه سيأتي ذات يوم يشتدّ فيه المطر لطلب القضيب المعدنيّ منها، وفعلاً ذاك ما حدث، إلّا أنّها حاولت أن تخدعه لكي لا تخرج إليه في ذاك اليوم بشكل مباشر، فاستشاط غضباً، واختطفها بالقوّة، وحملها لتعيش معه في الغابة ولم ينقذها منه سوى ابن عمّها بعد مغامرات مهولة ومحاولات مريرة في الانتصار على الغول.

(٣) د. أسماء غريب، أنا والنّبي دانيال، ضمن المجموعة القصصيّة (أنا رع)، دار الفرات للثقافة والإعلام، العراق، ٢٠١٦، صص ١٢٧/١٣٥.

(٤) ستجدُ آثار هذه الرّؤيا في معظم الدّواوين الشعريّة التي صدرت لي إلى الآن، ومنها: (مشكاة أخناتون)، (الفرعون الصّغير والأيّل الملكيّ)، ثمّ (تستوستيرون) وغيرها. أمّا في مجال القصّة والرّواية، فستجد الأثر في المجموعة السّرديّة (أنا رع)، وفي روايتَيْ (وريثة السرّ) و(أنا النّقطة). وفي مجال النّقد، تجد الأثر حاضراً في كافّة إصداراتي النّقديّة ومنها (أمشي فوق خطّ عموديّ)، و(شجرةُ التّين والأفعى).

الفصل الثّاني

الفتاة الأزليّة

بعد رؤيا الفُرنِ الفرعونيّ والّتي كانت في عام ٢٠٠٣، وألسنة اللّهب الّتي لا تحرقُني، حاولتُ أن أجدَ متنفّساً في الشِّعْرِ لأعبّر بطريقة الرّمز عمّا لا تستطيع ذاكرة بسيطة، ولا قلبٌ لحميّ آدميّ صغير تحمّله، وكان الشِّعْر بالنّسبة لي آنذاكَ نوعاً من التّمارين الرّوحيّة الّتي كنتُ أبوح فيها بأفكار جديدة، ولكنّها جنينيّة في الوقت نفسه، وذلك لأنّني اكتشفتُ بعد مضيّ عشرين سنة على وقوع الرّؤيا، أنّ حتّى الشِّعْر بكلّ رحابته وشساعته، لم يستطع احتواء هذا الثّقل كاملاً، وفهمتُ فيما بعدُ، لماذا قال البارئ عبارته الشّهيرة تلك: "وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ" (١)، فحدثَ بعد ذلكَ أن توقّفتُ مؤقّتاً وبشكل عفويّ وتلقائيّ عن كتابة الشِّعْر، لأنّه لم يعد قادراً على احتضان هذه التّجربة العرفانيّة الجديدة، ولم أعد أجد في تركيبته الدّاخليّة ذاك النّور الّذي يقود مباشرة إلى عوالم البصيرة، فيفكُّ طلاسمَها، ودعني أكنْ صريحة معكَ عزيزي القارئ، لقد

أصبحتِ القصائد نفسُها في الكثير من الأحيان قيوداً وأصفاداً تحجبُ عنّي المعنى، فيحدثُ الانزلاق عن جادّة الطّريق التّأويليّ. ولقد كانت قصيدةُ الفرعون الصّغير النّقطة الّتي أفاضتِ الكأس، بسبب ما ظهر فيها من بشارة الخلاص من هذا المأزق، وهذه أبياتُها:

[صباحُ الخَيْرِ يا فرعَونيَ الصّغير
شكراً لكَ لأنّكَ أريتَني مُلكَك العظيم
وأطلعتَني على الفراديس البِكر والحور العين
وأعطيتني المفاتيح السّبعة
وأدخلتني من الأبواب التّسعة
لكن اعذرني إذا قلتُ لكَ
إنّ كلّ هذا لا يعنيني في شيء
فأنا لستُ ممّن أُمِروا بالهبوطِ إلى أرض مصر
ثمّة مَلِكٌ آخر لهُ سلطانٌ عليكَ وعليّ
أخذني منكَ ورفَعَني إليه
ولستُ بحاجة إلى أن أرى النّعيم الخفيَّ
كي أومِنَ
صحيح أنّه كانت لي حياة ملكيّة قديمة مع حورس
لكنّ الّذي لا تعرفه أنتَ ولا هُو
أنّني آمنتُ قبل أن أراكَ أو أراهُ

لقد آمنتُ منذُ النّفخ الأوّل

والشّمس الأولى

ومنذُ النّجم الأوّل

والنّقطة الأولى!

نعم، لقد آمنتُ دون أن أرى شيئاً

أو أسمع شيئاً

ودون أن يُرفَعَ الحجابُ عن أيّ شيءٍ

فلا تُتْعِبْ نَفْسَكَ

يا فرعوني الصّغير

وإن كنتَ تَظْهرُ بتاج الحكمة

وعصا الحياة والنّعمةِ،

أسدلِ السّتار لطفاً

وتعال أنتَ إليّ

تعالَ إلى أرض الكبريت الأحمر والدّم الأزرق

تعال لأحرّركَ من أسْرِكَ الّذي طال أكثر ممّا ينبغي!] (٢)

لهذا الأمير والفرعونِ الصّغير حكاية معي، فهو أيضاً وليد رؤيا ظهرَ لي فيها بكلّ قوّة وعنفوان، وهو يلبس لباساً ملكيّاً بهيجاً، ولهُ عينان كحيلتان واسعتان، ورموش ذبّاحة تفيضُ بالبهاء والجلال، وذراعٌ يُمنى نُقشَ فوقها مفتاح العنخ، ما إن رأيتُه حتّى استوعبتُ للعمق تجربتي كاملةً، وبتُّ أعلمُ أنّ إلهي يخاطبني

بلغـة خاصّـة جـدّاً، وعنئـذٍ بـدأتُ ألجـأ أيضـاً للفنّ التّشـكيليّ، لأعـوّض ذاك الفـراغ التّـأويليّ والسّـيميائيّ الّـذي لا تسـتطيعُ القصيدة سدّهُ، وهكذا بدأتِ الرّيشةُ تُفصحُ عن المعاني الخفيّة، والأسـرار البهيّـة، وتشـرح مـا قـد غمُـض واسْـتُتِر فـي الشِّـعر، وبالفعل تركتُ ليدي وقلبـي حريّـة الغوص والتحـرّكِ برشاقة فـي محيطاتِ اللّون والرّمز، فكان أن ظهر بين اللّوحات الّتي كنتُ أرسُمُ الفرعونُ الصّغير على شكل أيّلٍ بنـيّ اللّون، يحيط بـه كلّا من كوكبَي الزّهرة والمرّيخ، وهو يسبحُ في سماء التّخليق. وهنا فقـط كشـفَ لـي مفتـاح العـنخ عـن نفسـه وماهيتـه، إنّـه مفتـاحُ الحيـاة، والحيـاةُ هُنـا مرمـوز لهـا بإشـارة أنثويّـة خالصـة هـي مرآة النّحـاس الخاصّـة بربّـة العشق والجمـال فينوس والظّـاهر وجودها في اللّوحة عبر كوكب الزّهرة، وقرص الشّمس بين القرنين وعين حـورس بداخلـه، وهـذه المرآة هـيَ الإيّـلُ نفسـه الّـذي جـاء شـبيها بثورٍ صغير، وليس من قبيل المصـادفة أبداً أن يكون صـولجان الـواس عنـد قـدماء الفراعنـة هـو نفسـه عصـا الرّاعـي، أو عصـا الحكمـة. (انظـر لوحـة الفرعـون الصّـغير فـي ملحـق اللّوحـات الخاصّة بهذا الكتاب).

أنظرُ إلى هذه اللّوحة بعد عامين على رسمها (٣)، وأتذكّرُ لوحة أخرى ستجدها في الملحق، كنتُ قد رسمتُها في

عام ٢٠١٢ (٤)، وأدقّقُ النّظرَ فأجدُ، أنّ عين حورس قد ظهرت في تشكيلاتي منذ زمن بعيد، وأجد الأيّلَ قد كان قبل سنوات كبشاً عظيماً، وهذا يعني أنّني كنتُ دائمًا في حضرة الرّاعي وصولجانه العجيب، بل إنّني ما كنتُ أكتبُ ولا أرسمُ يوماً إلّا ما تمليه عليّ الحضرة الملكيّة الفرعونيّة الكبرى. (انظر لوحة "رؤية النّور في ربيع الأذريون" بملحق اللّوحات).

مخطئ مَنْ سيعتقد، أنّني أرسمُ نفسي، ولكنّي ألتمسُ لهُ العذرَ في الوقت ذاته، فأنا أيضاً كانت تمرُّ بي لحظات، اعتقدتُ فيها أنّني أرسمُ أو أكتبُ نفسي، ولكنّي اكتشفتُ فيما بعدُ أنّني أرسمُ المحرابَ لا العابدَ، وأكتبُ وأصفُ الرّحلةَ لا المُسافر(٥). لكن ماذا يعني أن أكون في الحضرة الفرعونيّة؟ وكيف فهمتُ وإلى أيّة درجة استوعبتُ هذه الحقيقة؟ جوابي جاء بعد عشرين سنة مرّت على رؤيا الفُرن الفرعونيّ، وقد عبّرتُ عنه من خلال لوحة أخرى (تجدها في الملحق) وفيها أسد بقرنين. نعم، أسدٌ بقرنَيْن، هل سبق لكَ أن رأيتَ هذا؟! ألا تلاحظُ معي أنّ ثيمة القرنَيْن قد ظهرت لأكثر من مرّة وفي أكثر من لوحة وإصدار؟ إنّهما في لوحة الأيّل الملكيّ، وفي لوحة الكبش العظيم، وفي إصدار (دزاكَرا / إمامُكَ المُنْتَظَرُ كما لم يُخْبِرْكَ عنه أحد) (٦)، وبالضّبط في الجزء الخامس منه، والّذي

فيه أتحدّث عن النفس المؤلَّهة صاحبة القرنيْن الملكيّيْن العظيميْن، والتي تظهر وسط نتاجاتي الفكريّة تارة في صورة الأيّل، وأخرى في صورة بقرة أو كبش، وثالثة في صورة أسد. إنها أنت أيّها الإنسان، بل أنتِ أيّتُها الفتاة، وأنتَ أيّها الفتى. وإذ أعطيك عزيزي القارئ لقب الفتوّة، فلأنّي منذ رؤيا فرن الفرعون، فقهتُ إلى أنّ أولى مقامات اليقظة الرّوحيّة بل أقواها وأهمّها على الإطلاق هو مقام الفتى إبراهيم، وكلّ مَن أتى بعده من الفتية. وعليه فإذا كان الفرعونُ قد طلب يدَ النّفس وأمر مستشارهُ بإدخالها إلى الفرن لتصبح جاهزة لتلقي الأسرار الكبرى، فإنّ هذا يعني أنّ الفرنَ هو أرضُ الله العظمى ومختبره الكيميائيّ الكبير؛ أيْ كوكبنا هذا الّذي هبطنا إليه، وأعني به الجسد المادّي الصلصاليّ التّكوين، وكلّ الفتيان يعرفون هذه الحقيقة جيّداً، وكيف لا والفتى هو كلّ روح كسرت صنم الهوى، وحازت علوم القدرة في الحضرة الإلهية فتُعامِل كل كائنٍ على قدره وتكتسبُ الخبرة في كيفيّة تقديم مَن وما ينبغي أن يُقَدَّم وتأخير مَنْ وما ينبغي أن يُؤَخَّر.

نعم، يا عزيزي القارئ، لمْ يكن الملكُ الفرعونُ في تلك الرّؤيا، سوى رمز لذاك الخيميّائيّ الكبير، الّذي يؤجّجُ نيرانه في فرن الحضرة الكبرى، ليهيّئكَ كيْ تُصبح ملِكَاً جديداً يرنو إلى الغَرف

من المعرفة اللّدنيّة في المدرسة الإلهيّة الكبرى، وانظر في الملحق إلى لوحة "الفرعون يطلب يدي"، وستجدني قد رسمتُ لكَ كلّ العناصر الكيميائيّة التي تدلّ على رحلتك المعراجيّة الفرعونيّة الكبيرة: الغراب، لأنّه حامل الأسرار في أرض الاختمار، والبويضة الجاهزة للتّخصيب بالحيوان المنويّ المرصود، ثمّ أنتَ فرعوناً يُمسكُ بيد مفتاح العنخ وبأخرى عصا الحكمة، ويتقدّم لطلب الاقتران بالنّفس، وإدخالها إلى فرن التّخليق. وماذا عن السّمك؟ إنّه العنصر الدّالُ على الماء مكملاً بذلك حضور بقيّة العناصر من تراب ونار وهواء، وهي العناصر المطلوبة في كلّ رحلات النّفس ومعارجها العظمى.

خلال هذه العشرين سنة الّتي مضت، كنتُ أحاول أن أفهم كيف أنّ هذا الإنسان هو حقيقة المفتاح الأهمّ لمن يرنو قراءة الكتاب الكونيّ، وقد ظهر ذلك في معظم كتاباتي بكلّ الإشارات والدّلالات العرفانيّة الكبرى. نعم الإنسان هو العنخ الأكبر. بل هو عصا الحكمة نفسها. طيلة هذه السّنوات العشرين كنتُ أطرحُ أسئلتي حول النصّ القرآني: كيف يتفاعلُ معه الأديبُ لا الفقيه، وكيف يفهمه الفنّان لا رجل الدّين؟ بل كيف تقرؤه المرأة وتتشرّبُ معانيه كأنثى كونيّة، وما الّذي يُمكنها أن تقوله لنا عنه؟ وحدثَ حقّاً أنِ استجمعتُ قواي، وتفتّقت في

قلبي الأجوبة الواحدة تلو الأخرى. وفهمتُ أخيراً بعد العديد من التّجارب والرّؤى الذّوقيّة الخاصّة جدّاً، أنّ الإنسانَ نفسه هو هذا الفرقان، والقول الفصل، والذّكر الحكيم، وأنّ الفراعنة المذكورين في كتاب الله، ليسوا سكّان مصر، وأن مصر القرآنيّة نفسها ليست هي فقط تلكَ الّتي تعرفها أنتَ جغرافيّاً بنيلها وأهراماتها؛ إنّها بالإضافة إلى هذا شيء آخر تماماً، وإذا كنتَ تريد أن تراها، فهاتِ يدكَ واتبعني لأُظهِرْها لكَ في نفسكَ، وقلْ بسم الله الّذي لا يضرُّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السّماء وهو السّميع العليم.

الهوامش:

(١) يس: ٦٩

(٢) د. أسماء غريب، ديوان (الفرعون الصّغير والأيّل الملكيّ)، دار الفرات للثقافة والإعلام، العراق، ٢٠٢١؛

(٣) هذه نسخة جديدة فيها بعض من التّعديلات والإضافات، مقارنة لها بالنّسخة الأولى للّوحة الّتي كانتْ قد ظهرت على غلاف الدّيوان الشّعريّ نفسه؛

(٤) اللّوحة ذاتها ظهرت عام ٢٠٢١ في إصداري (بندول إيزيس/ تأمّلات فكريّة في علاقة الفنّ التّشكيليّ بالتّجربة العرفانيّة)، وهذه نسخة جديدة اشتغلتُ عليها مرّة أخرى وأضفتُ إليها بعض التّعديلات والتّحسينات؛

(٥) انظر في هذا الصّدد كلّا من: (بندول إيزيس/ تأمّلات فكريّة في علاقة الفنّ التّشكيليّ بالتّجربة العرفانيّة)، دار الفرات للثقافة والإعلام، العراق، ٢٠٢١، ص ٢٠. و(ترجمتُ لكَ / دراسات وتأمّلات ترجميّة جديدة في عوالم الشّعر العرفانيّ والتّاريخ)، الجزء السّابع، دار الفرات للثقافة والإعلام، العراق، ٢٠٢١، صص ٧٣/٧٤؛

(٦) (دزاگرا / إمامُكَ المُنْتَظَرُ كما لم يُخْبِرْكَ عنه أحد): صدر عن دار الفرات للثقافة والإعلام، في بابل يوم الاثنين ٢٩ آب ٢٠٢٢. وهو عبارة عن مسح شامل لمعظم تجلّيات رمز الإمام المنقذ في شتّى إصداراتي الأدبيّة، من خلال سرد مجموعة من الأحداث يقترنُ فيها الواقع المادّي بصور حيّة من الواقع العرفانيّ، عبر أسلوب أدبيّ يجمع بين الرواية والشّعر والتأويل السّيميائيّ العرفانيّ والنّقد الأدبيّ والفنّي.

وقد جاء هذا الإصدار في ٣١٦ صفحة من الحجم الوزيريّ، توزّعت – بالإضافة إلى الجزء الخاصّ بدراسات الأستاذ هيثم المحمود–، على خمسة أجزاء وفي كلّ جزء مجموعة من الفصول هي كالآتي:

الجزء الأوّل: محارةُ الذّهب

- في بلاد شفشاون
- النّسر الأحمر
- آسية الجديدة
- السجّاد السّحريّ العجيب
- في حضرة الشّيخ حيّ ابن يقظان

الجزء الثّاني: التّرياقُ بيْنَ يديْكَ

- لماذا فتحتِ البابَ؟!
- في البيت الجديد
- ليلة عشقٍ خالص

الجزء الثّالث: حبيبتي المُدْهِشة!

- سبعةُ مفاتيح
- الحربُ الكُبْرى
- البئر المُعطّلة

الجزء الرّابع: قُبْلةٌ تحتَ شجرة السّرو

- استيْقِظ يا أبسال
- قصْرُ سْتيري
- قُبلة تحتَ شجرة السّرو
- وجاء النّسر

الجزء الخامس: أطِيرُ إلَيْكَ على صَهوة الوَشَقِ

- ارفع كَفّيْكَ؛
- طريق الإثمد الأبيض
- أستاذتي الذّئبة.

(٧) يمكنكَ في هذا الصّدد الاطلاع في موقعي الرّسميّ على مقالات الأديب العرفانيّ هيثم كاظم المحمود عبر هذا الرّابط الإلكتروني:

https://sullasuaesperienzaletteraria.files.wordpress.com/2023/03/04.pdf?force_download=true

الفصل الثّالث

أرضُ مصر

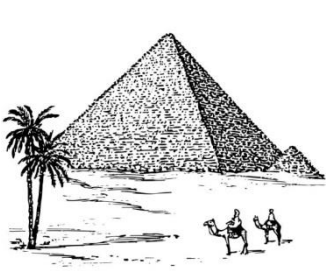

أعلمُ أنّكَ ظامئٌ جدّاً، وترغبُ في المزيد من اللّبن، لكن عليك أن تعرف أنّكَ مادمتَ توجدُ هنا، ففي محرابي هذا لا أقدّمُ لبنًا، لأنّه لأهل الفطرة الإيمانيّة الأولى، ولا خمرةً، لأنّ شاربَها يسكر ويبوح بالسرِّ، ولا عسلاً لأنّ ذائقه يلتهي بما يراهُ من العجائب الملكوتيّة، من قبيل حملة الأباريق والحور العين وغيرهما، لكن إذا كنتَ من أهل الحضرة الخَليليّة، فهات كأسكَ ودعني أصبّ لكَ فيها السمّ الزّعاف، لأنهم وحدهم شاربي السمّ، تُكتبُ لهم الحياة الأبديّة، وتُسَجَّلُ أسماؤهم في كتاب الأخلّاء والأولياء.

قلتُ إذن إنّ مصر القرآن ليست هي وحدها مصر الأرض الجغرافيّة المتعارف عليها بين النّاس، وعليه فإنّ فراعنة القرآن، ليسوا هم بُناة الأهرام الأرضيّة، إنّما هم قوم عادٍ والّذين كانت تُعرفُ عاصمةُ دولتهم منذ سبعين ألف سنة بِاِسْمِ إرَمَ ذات العماد الّتي لم يُخلق مثلها في البلاد، ولولا ذكرُ القرآن لهم

ولحضارتهم لما كنّا لنعرف عنهم شيئاً، وهذا يدلّ على أنّ هذا الكتاب هو من عند الله، وليس بأساطير الأوّلين. عجباً إذن كيف يحدّثنا القرآن عن حضارة عمرها سبعون ألف سنة، في حين تقول لنا كتب الدّيانات الأخرى إنّ ظهور آدم لم يكن إلّا منذ سبع آلاف سنة فقط. فكيف يستقيم هذا الأمر؟! وهو إن دلّ على شيء، فإنّما يدلّ على أنّ ما حدثَ من تزييف وتطاول على كتاب الله عبر آليات ملتويّة في الشّرح والتّأويل لآياته وسوره، كان كفيلاً بأنْ تضيعَ معهُ الحقيقة التّاريخيّة والسّياسية للإنسان نفسه. ومن هذا المُنطلق، فإنّه يحقٌّ لنا أن نتساءل ونقول: أيّة أسرار تحملُ هذه الظّاهرة الفرعونيّة في القرآن الكريم، وما معنى أن يحكي اللهُ قصصَها لنبيّه محمّد (ص)، عبر كلّ آيات الوحي النبويّ الشّريف، حتّى لأنّ الكثيرين أصبحوا يعتقدون وهماً أنّ القرآنَ استقى حكاياته وقصصه من كتب الأقوام والأنبياء السّابقين وأنّ محمّداً تأثّر في نقله لنصّ الوحي بما كان يسمعه من أخبار الماضين عن موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء (ع)، ونحن هنا لنقول إنّ هذا أمر باطل، فكما اختُلِقَتِ الكثير منَ الأحاديث ونُسبتْ إلى نبيّ الرّحمة محمد بن عبد الله، فإنّ التّاريخ الدّيني برمّته قد تمّ تزويره، وصدّقنا ما تمّ تدوينه في الكتب، وجعلنا منه حقيقة راسخة، لا قدرة لأحد على

زحزحتها.

مصرُ القرآنيّة، هي مملكة البدن، وقد بدأ تاريخها بحكاية عشق فريدة من نوعها، بطلاها إبراهيم وهاجر عليهما السّلام. وإنْ تسأل عن إبراهيم من يكون، أقُلْ لكَ؛ فرعاً من شجرة القلبِ الكونيّ، أمّا هاجر فهي نفسُه الكلّيّة، والسيّدة الملكة القائمة على شؤون مدينة الجسد في الأعلى كما في الأسفل. ولم يكن من الممكن أن تظهر هاجر لو لم ينزل الجَدّانِ آدم وحوّاء من سماء الفردوس، إلى أرض مصر البدن، ليُسلّما إلى الابن إبراهيم مفتاح الخِلّة، فيحوِّلُ آدمُ إبراهيمَ من نبيّ الله إلى خليله، وتُحَوِّلُ حوّاءُ هاجرَ إلى سادنة محراب العشق والمحبّة الكونيَيْن، وذلكَ حتّى يتمكَّنَ إبراهيم من إيداع بذرة أو نطفة الحياة الجديدة فيها. لكن قبل ذلكَ كان لا بدّ له من أن يسلك طريق المعرفة الكُبرى ليعاين ظهور ثمّ أفول شمس وقمر المعارف الكبرى، ويقول عبارته الشّهيرة تلك: ((لا أحبُّ الآفلين))، بعد أن خرج من اللّيلة العرفانيّة المظلمة، والّتي ستجدها حاضرة في معظم لوحاتي عبر طائر الغراب، كرمزٍ للظّلام الكيميائيّ الدّامس الّذي تحتاجه النّفس الكليّة وهي في طريق ولادتها للبذرة السرّيّة العظمى، كما يظهر في لوحة "لا أحبُّ الآفلين" (ملحق اللّوحات).

تذكّر يا أيّدكَ الله بنوره، أنّني في لوحاتي الّتي أقدّمها

بين يديْكَ لأستعين بها للتّعبير عمّا تعجز عنه اللّغة، تذكّرْ أنّني وأنا بصدد شرحها لكَ، لا أعطيكَ إلّا رؤوسَ الأقلام، ولا أتحدّث إلّا بلغة الإشارة عن بعضٍ من مفاتيحها الكبرى لا كلّها، ففي هذه اللّوحة الخامسة مثلاً، كان من المفترض أن أرسمَ إبراهيم الّذي لا يحبُّ الآفلين، لكنّني بدلاً منه رسمتُ هاجر والظّلمة الكيميائيّة تحفُّ بها من كلّ جانب، وهذا مردُّهُ لسبب واحد لا غير: إن هاجر أو النّفس الكلّيّة هي المسؤولة الأولى عن يقظة إبراهيم الغصن المتفرّع من شجرة القلب الكونيّ، وهي الّتي دلّته بداية على الشّمس ثم من بعدها القمر، وحينما أفلا معاً، عادتْ به إلى الإظلام الكبير، الّذي لن تجليه سوى البذرة السرّيّة الّتي أشرتُ إليها قبل قليل.

وإذ أسْمَعكَ وأنت تسألني، ماذا أعني بالبذرة السريّة، أقل لكَ، إنّها السرّ الّذي ظهر بأسماء لدنيّة خاصّة هيَ إسماعيل، وموسى ويحيى وعيسى وعبد اللّه، وعَليّ والحسين، ثمّ صاحب الزّمان (عليهم السلام جميعاً). أيْ كلّ أولئكَ الّذين صدر في حقّهم الحكم الإلهيّ بوجوب النّحر والذّبح. ستقول لي إنّكَ عرفتهم جميعاً، ولكنّكَ لم تعرف من يكون عبد الله هذا؟ وأجيبكَ بكلّ ثقة وأمان: إنّه والد النبيّ العدنان، محمد ابن عبد الله. والآن ركّز معي يا حفظك ورعاك المولى بلطفه المكين في اسم

عبد الله: يقول البحثة وأهل التّحقيق إن اسم والد الرّسول (ص)، غير وارد في القرآن، وأقول إنّ هذه من الأخطاء الفذلكيّة الّتي صدّقناها جميعاً، وسكرنا حتّى الثمالة بخمرة الغفلة المتعربدة الّتي سقونا إيّاها عبر كلّ هذه القرون من النّوم العميق، فالقرآن لا يتحدّث إلّا عن عبد الله، ولكن تحت اسم غير الّذي اعتدت عليه أنتَ في لغتك العربيّة المعاصرة، إنّه (اسرائيل) نفسه، والّذي إذا بحثت عن معناه فإنّكَ ستجد أنّه يعني صفوةَ الله، أيْ خاصّته، لأنّ (إسرْ) تعني باللّغة السّريانيّة العبدَ الصفيّ، و(ئيل) تعني الله. وعليه فإنّه يتّضح لك لماذا كان النبيّ محمّد (ص)، يقول إنّه ابن الذّبيحيْن ويقصد إسماعيل (ع)، وعبد الله (ع). وبناء على ما سبق ذكره سيتّضحُ لكَ لماذا تردُ أخبار بني اسرائيل في كتابٍ محمّديٍّ خالص! وكيف لا، والكتاب نفسه وحي منزّل على محمّد بن عبد الله، وليس من الغريب أبداً أن يتحدّث عن كلّ الوقائع التي تعني بيت النبوّة الكبير بدءاً من إبراهيم وصولاً إلى صاحب الزّمان (ع).

ولمن سيعترضُ على هذه الفكرة بحجّة الكرونولوجيّة التاريخيّة لظهور كلّ الأنبياء، وأنّ محمّداً نفسه ووالده ماظهرا إلّا بعد أن صدر الأمر بختم الرسالات والوحي، فإنّنا نقول له، إنّنا بصدد الحديث عن عقل كونيّ هو عبد الله وقلب كونيّ هو

محمّد، وهذا يعني أنّ من هذا العقل والقلب الكونيّين تفجّرت كلّ الرسالات، وظهر كلّ الأنبياء وفقاً للروزنامة الإلهيّة السّماويّة، وتبقى مسألة الكرونولوجيّة التاريخية، مسألة وضعيّة تابعة لروزنامة بشريّة لا أقلّ ولا أكثر. ولأنّ اللّبيب بالإشارة يفهم، فستعرفُ الآن كيف زُيِّفَ التّاريخ السّياسيّ في المنطقة العربيّة كلّها، ولماذا أصبح يعقوب في الشّروح والتّفاسير القرآنيّة قاطبة هو إسرائيل، ولماذا أصبحت ذريّته هي شعب الله المختار الأحقّ بحكم الأرض من نيلها إلى فراتها. فهل وصلك المعنى يا ترى أيّها المؤيّد بنور الله وحكمته؟!

عبد الله الأبُ (ع) إذن هو العقلُ الكونيّ، ومحمّد الابن (ص) هو المدبّر لشؤونه العظمى. لكن ماذا عن أمّهات البذرة السريّة؟ إنّهن النّفس الكلّية التي ظهرت بأسماء أنثويّة لدنيّة مباركة، هي هاجر، وأمّ موسى، وإيشاعُ، ومريمُ بنت عمران، وآمنة بنت وهب، وفاطمة ثمّ نرجس (عليهنّ السلام جميعهنّ)، وستلاحظ كيف أنّ أدوارهنّ في الحفاظ على البذرة أو النّطفة السريّة يتوزّع بين الأمّ والزّوجة، فهاجر زوجة لإبراهيم وأمّ لإسماعيل، وإيشاع زوجة لزكرياء وأمّ ليحيى، وآمنة بنت وهب زوجة لعبد الله بن عبد المطّلب، وأمّ لمحمد (ص)، وفاطمة زوجة لعليّ (ع)، وأمّ للحسين (ع).

وإذا عدنا إلى سؤالنا الأوّل عن الحضرة الفرعونيّة الكبرى وسبب تواجدها في القرآن الكريم، فالصّورة الآن أصبحت واضحة، لأنّ لها علاقة وشيجة ببيت النبوّة الكبير، والّذي ولد فيه وترعرع كل أنبياء الله وصدّيقيه، وهو مدينة بدنكَ، واعلم أنّ المقصود بمصطلح "الفرعونيّة" هنا المُلكَ والحكم النبويَّيْن، ولا تعنينا منه المعاني المتداولة بين عامّة النّاس من قبيل الطّغيان والاستبداد الّذي لا يظهرُ إلّا في الجزء السّفليّ من المدينة لا العُلويّ، لأنّ المملكة كلّها لها ملوك وأجناد وجيوش فيها من يحكم القسم العُلويّ، وفيها من يحكم العالم السّفلي، وهم جميعاً وفي كلّ الأحوال لا يخرجون عن الحكم الفرعونيّ الأصل والرّئيس، وقاهر طغاة العالم السفليّ واحد لا غير، إنّه أسدُ الله الغالب عليّ بن أبي طالب (ع)، بسيفه ذو الفقار، ذاك الّذي رأيتُهُ في تصاوير الطّفولة وبقي راسخاً في ذاكرتي إلى هذه اللّحظة الّتي أنا بصدد الكتابة إليكَ، وقد ظهر لي أيضاً من يكون رأسُ الغول، الّذي ماهو سوى رمزٍ لكلّ من يخلو قلبه من النّور الإلهيّ، فيصبح عبداً متشيطناً لجسده المادّي وشهواته، وأصنامه الّتي لا حدّ ولا حصر لها.

الفصل الرّابع

إكسير الإمام

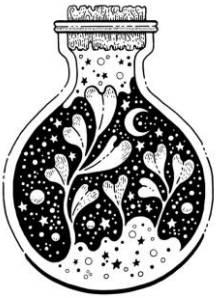

لكي أحدّثكَ عن سيف الطّفولة، لا بدّ أن أعود إلى البئر، بئر هاجر وإسماعيل هناك حيث قال إبراهيم: (رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) (١). بل هناكَ حيثُ الفرنُ الفرعونيّ اللّدنيّ الكبير، أو هناك حيث نار الصّحراء ولهيب حرّها الحارق، والّذي وإن كان حاضراً فيه كلّ من عناصر الهواء والتّراب والنّار، إلّا أنه كان ينقصُ هاجرَ النّفس الكليّة، الماءَ الّذي جعل الخالقُ منه كلّ شيء حيّاً، وهو ما أسمّيه بالمني الإلهيّ، أو السمِّ الملكيّ الّذي لا يموت به إلّا الأنبياء والأولياء، فيحيون بعد شربه أو الطّعن به حياة أبديّة في الحضرة الملكيّة العليا.

وها هو إسماعيل يضربُ بقدميه الأرض، وها هو ماء المعرفة يتدفّقُ حارّاً، هديّة من البارئ لهاجر الّتي تطهّرت من

كلّ العلائق والغيريّات، واكتشفت جوهرها الرّوحانيّ، وطافت سبعاً متخلّصة من ذاتها وإرادتها، فشهدت خالقها كشفاً على جبل عرفات، فعرفته وعرفها ساعية بين الصّفا والمروة الّتي هي الإيذان بحدوث الرّيّ وتدفّق العلم اللّدنيّ، ووقوع البروز مصداقاً لقوله عزّ وجلّ: ((يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ، سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ، لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ، هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)) (٢) وهو البروز الّذي لا يكون إلّا على ثلاث مراحل يُعلَنُ فيها عن الموت الجسدي والمسمّى بالقيامة الصّغرى، ثمّ موت النّفس وهو القيامة الوسطى التي بها تتحقّق العودة إلى الفطرة الإيمانيّة الأولى، ثمّ مرحلة الفناء المحض ويكون بالموت عن الأنا وهو البروز للواحد القهّار أو ما يُسمّى بالقيامة الكبرى، والتي بها تُقام المحكمة الإلهيّة في حضرة المهديّ القائم بالحقّ والفاصل في تخاصم أهل النّار والجنّة.

ولا يظهر المهديّ، إلّا بعد أن يُرفعَ سيف عليّ بن أبي طالب (ع) ذي الإثني عشرة فقرة، كلّ منها خاصّة بإمام معيّن من الأئمّة الإثني عشر، وعدد هذه الفقار هو عدد المعارج

الرّوحيّة في طريق الزّهرة والمرّيخ. ولتعلم يا أيّدك الله بعلمه وحكمته أنّ الحديد الّذي صُنعَ منه سيف عليّ (ع)، هو نفسه الزّئبق الإلهيّ، وهو نار ملكيّة تحرقُ كلّ الشّوائب. وسيف عليّ فيكَ هو روحك المجاهدة أيّها السالك إلى الله. وهذا السّيف مفتاح له شفرة تُسْتَأْصَلُ بها كلّ الأمراض والعلل الرّوحيّة، لأنه يفتح السّجون المظلمة، ويحرّر الرّوح من قيودها وأصفادها، فتغادر مقام الرّصاص والفحم، وتدخل إلى مقام الذّهب والماس. ولتنظر الآن إلى هاجر في لوحة "أنا ذو الفقار والمفتاح في يدي"، وستراها حاملة لهذا السّيف وفوق ذراعها مفتاح العنخ. أمّا عن الفقرات أو الفِقار الإثني عشر الّتي أشرتُ إليها قبل لحظات، فإنّ كلّ واحدة تجسّد مرحلة كيميائيّة معيّنة تنتقل فيها النّفس الكليّة من مرحلة الاسواداد والتعفّن إلى مرحلة الاحمرار المعروفة بمرحلة جبل الطّور، حيث يبرز الخالق للنّفس ويُفسِحُ المجال لظهور الإنسان الكامل، خليفة الله فوق الأرض. ويُعتبرُ الإمام جعفر الصّادق (ع) هو الكيميائيُّ الكبير القيّم والمشرف على سير هذه المراحل واكتمال دورتها بشكل سليم ودقيق. وبالحديث عن الاسوداد والاحمرار، فإنّي أدعوكَ للنّظر في اللّوحة السّابقة (رقم ضمن الملحق٦)، وستجد أن نِمِسَ هاجر أيْ غطاء رأسها أحمر اللّون، أمّا وجهها وجسدها فعليهما بعضّ

من السواد كإشارة لفحم الاحتراق، وحولها هالة النّور كإشارة منّا إلى النّار الإلهيّة، وهي نفسها النّار الّتي ستجدُ في "لوحة ذو الفقار"، والتي يظهر فيها السّيف بفقاره الإثني عشر.

وإضافة إلى ما سبق ذكره، فهو نفسه الإمام جعفر الصّادق (ع) الّذي يُعلّمُ الإنسانَ أنّ السيف ذي الفقار الإثني عشر ماهو في الحقيقة سوى دورة الفصل المهدويّ، أو الدّائرة الرّوحيّة الّتي تتكوّنُ داخل المُخيّلة الكونيّة الحيّة، وهي في الوقت ذاته عجلة الكون التي تقود في دورانها إلى مركز الأنا الأعلى والّذي أشرتُ إليه بعين حورس، أو عين صاحب الزّمان في لوحة "ذو الفقار وساقيات السمّ".

وإذا كنتَ ترغبُ في المزيد من التّفاصيل عن هذا السّيف العجيب، فدعني أقُلْ لكَ، إنّه لا بدّ له وفي كلّ فقراته من ساقية للسمّ، وأشهرهنّ جعدة بنت الأشعث وقطّام بنتُ الشّجنة، وانتبه يا عزيزي إلى اسميْهما وستجدُ أنّ دائرة شؤون الحرف والوحي في الحكومة الإيمانيّة العميقة أرادت بهما الإشارة إلى قوّة ومرارة السمّ في طبيعة عشبة الجعدة، وحِدّة وسرعة حركة القطم والقطع في عملية خلع النّفس وقطمها لكلّ العلائق والغيريات التي تمنعها من الدّخول إلى الحضرة الإلهيّة.

هل تتذكّر الفتى العاشق الباكي في رؤيا الفرن

الفرعونيّ؟ إذا كان قد فاتكَ أن تسألني عنه، فدعني أُخبرْكَ إنّه الرّوح العليا؛ لقد كانت المسكينة تُمسكُ قلبها بيدها وتُشفق على النّفس الكلّية خوفاً عليها من ألّا تنجح في عمليّة الحفاظ على النّطفة السرّيّة، ولا في الوصول بالمهديّ إلى طور الإفصاح عن نفسه. وهذا ما يبرّر كيف أنّ هاجر كانت تركض جاهدة وباستمرار بشكل دائريٍّ بين الصّفا والمروة، وهي ترسمُ دورة السّالك حول سيف عليّ، محاولا الدّخول إلى المركز لمعاينة البروز الإلهيّ الأكبر. واعلم أنّه في حياتك اليوميّة يوجد من يرى هذا الرّكض في نفسه ولكن لا يفهمه، إذ غالباً ما يرى بعض النّاس أنفسهم في حلم ما يركضون باستمرار، أو كأنّ امرأة مجهولة أو رجلاً مجهولاً يركضُ خلفهم، وأنّى يفهمون ذلك وأهل الشّعوذة سدّوا على النّاس كلّ الأبواب، وأصبحوا يفسّرون لهم أحلامهم بدون علم ولا حكمة، فسمّوا هذا النّوع من الرّكض بالتّابعة من الجنّ، في حين أنّ الأمر يتعلّقُ بجهاد النّفس وجريها الدّائريّ محاولة منها إلى بلوغ المركز حيثُ عين الإمام المُخلّص، ولكنّها لا تعرفُ السّبيل إلى ذلكَ، ولا تجدُ في أعماقها من يهديها إلى الطّريقة المثلى، وثمّة من يظلّ يدور في هذه السّاعة الكونيّة لسنوات عدّة فيمرض، ويسمّي عامّة النّاس مرضه هذا بالمسّ، في حين أنّ الأمر برمّته فيه نوع من

الإجهاد والإحباط والدّمار الّذي يصيب النّفس بسبب عدم قدرتها على تحقيق الوعي الأعلى واللّقاء بإمامها الموعود.

السّاعة الكونيّة الّتي أحدثكَ عنها ، أحاول اللّحظة أن أرسمها لكَ في لوحة إكسير الإمام (انظر الملحق)، وبينما أنا بصدد فعل ذلك أرى رأسَ القلم بين إبهامي وسبابتي، قد أصبحَ محاطا بدوائر من نور، وكلّها دوائر تتوهّجُ فوق الورق، وهي خمس تدلُّ على أنّ هذه السّاعةَ لها خمس إيقاعات: ولكلّ إيقاع عدد معيّن من النّبضات المسؤولة عن ذاك الانسجام والتّناغم الّذي تحتاجه مملكة البدن من أجل تحقيق ظهور إمامها صاحب العصر والزّمان فيها، وشُربِ إكسير الحياة من يديه الكريمتيْن، بسرّ قوله سبحانه وتعالى: (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (٣)

الهوامش:

(١) إبراهيم: ٣٧؛

(٢) إبراهيم: ٤٨/٥٢؛

(٣) البقرة: ١٢٩.

الفصل الخامس

رأسي في الدّلو

مازلتُ بالقرب من البئر عند هاجر أو إيزيس الكبرى، وهي الآن تقترحُ عليّ أنْ أضع رأسي في الدّلو، وها أنذا أستجيب لدعواها، فيُزهرُ الكونُ من حولي وتتضّح الرّؤية أكثر فأكثر وأسمع قلبي يُنشدُ ويقول:

[وضعتُ رأسي في الدّلو
ورأيتُكِ يا إيزيس الكبرى
والماء المالح سمٌّ بين يديْكِ
شربتهُ كاملاً فازددتُ عطشاً.

*

وضعتُ رأسي في الدّلو
ورأيتُ البحرَ عارياً
وسمعتُ الأساطيل تناديني وتقول:
أين درب العشق أيّتها العارفة الأخيرة
ومن سيرسمُ الطريق

ويحمل المشعل الكبير؟!

*

وضعتُ رأسي في الدّلو

ورأيتُ البحرَ ضاحكاً

وأنا بين يديْهِ طفلة

أركضُ فوق الموج الهادئ

وأقطفُ سنابلَ من زمرّدٍ وماسٍ

أمَامِي أنتَ يا إمَامي

وحول رأسكَ أرى قرصاً من النّور العظيمِ

أرفعُ إليكَ وجهي

يبتسمُ الموجُ

وحينما تلتقي عينيّ بعينيْكَ

يُمزّقُ البرقُ ستارةَ السّماء

ثمّ يُغمى عليّ!

*

وضعتُ رأسي في الدّلو

ورأيتُ الدّربَ ضيّقاً جدّاً

وأنتَ فيه يا صاحبي تقود سيّارة سوداء فارهة

وأنا إلى جانبكَ أنظرُ إلى الطّريق

وما إن نغادر الزّقاق بنجاح

دون أن تصاب السيارة بأيّ خدش
تطلب قُبْلَةً في الزّحام
وحينما أمتنعُ بدلال وحياء
تخطفها من بين شفتيّ
بينما في المرآة الخلفيّة عينُ الوجود
تنظُرُ إليكَ وإليّ
وأنتَ تُديرُ المِقْوَدَ بيديْكَ]. (انظر في الملحق لوحة "رأسي في الدّلو").

نعم، يا عزيزي القارئ، لقد وضعتُ رأسي في الدّلو حقّاً وحقيقةً، وآن لكَ أن تفعل الشّيء ذاته، وتُديرَ مقودَ السيّارة السّوداء بيديكَ، فهو السّاعة الكونيّة الّذي ستدلّكَ على المركز المحمّدي هناك حيثُ العنكبوت تنسجُ بيتها لتُبْعِد عيون الأعداء عن النّائم في الغار. وإذ تسألني لماذا العنكبوت، أقل لكَ إنّها المركزُ الخلّاق، حارسة باب مدينة العلم، وكونها تنسجُ بيتها بشكل انسيابيّ وسلس، فهذا يعني أنّ النّفس هي التي ترسم طريق خلاصها بهدوء وطمأنينة، لكن لا تنسَ يا صاحبي أنّ الله قال إنّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ! (انظر في الملحق لوحة "كهف الإمام").

رسمتُ لكَ في هذه اللّوحة كهف الإمام، لكي ترى السّيف ذي الفقار الإثني عشر، وهو على شكل حيّة هي حيّة

جبل ق، محيطة وحارسة للعنكبوت المنهمكة في نسج بيتها، وأنتَ لا تعلمُ إنّها نفسكَ، الّتي كما تبني وتتزكّى وتتطهّر، فإنّها أيضا تهدم وتترجّسُ وتتدنّس، ولهذا فإنّ بيتها هو أوهن البيوت، ولهذا فإنّ الرّوح في ترقّب وخوف مستمر ودائم على حياة الإمام المهديّ، الّذي حتّى إذا ما اكتملت دورة خروجه من الكهف، ظهر من يحاربه ويسعى خلفه من أجل قتله من جديد. عجيبة حقّاً هذه النّفس، أليس كذلك؟ إنّها الكينونة الّتي تربطُ الوعي الأعلى بالوظائف الفيسيولوجيّة في مدينة البدن، ومن يُنْكرُ وجودها كعقل باطن، يعتقدُ أنّه يعرفها تمام المعرفة، في حين أنّنا مازلنا لليوم لا نعرف عنها شيئاً، وهو الأمر الّذي لن يتمَّ إلا إذا بلغنا مقام الدّلو، المُمَهِّد لعصر الحوت العظيم، عصر الفتوحات العلميّة الكبرى، ليس بمعناها الثّقافيّ الجافّ، وإنّما بمعناها الرّوحي المضمّخ بماء الحياة، والّذي متى ما شربه الإنسان عرف كيف يسمحُ لبذرة الإله بالنموّ، وهيّأ لها الأسباب لذلك، حتّى تُزهر وتتفتّق عن الإنسان الكامل، عين الله وخليفته فوق أرضه. (انظر في الملحق لوحة "هل تسمح لي بالظّهور؟").

الفصل السّادس

صحراء جديدة

المكان: عيادة طبيب العيون. اليوم: ١٤ /٠٣/ ٢٠٢٣. السّاعة: ١٨:٣٠. تنادي السكرتيرة، أدخلُ ويبدأ الفحص الرّوتينيّ؛ قراءة الحروف الصّغيرة والكبيرة فوق الشّاشة الحائطيّة، تغيير العدسات الزّجاجيّة الواحدة تلو الأخرى إلى أن يتمَّ الاستقرار على العدسة التي تصبح بها الرّؤية والقراءة أكثر وضوحاً، دون نسيان قياس ضغط العين، ثمّ بعد ذلك فحصها الدّقيق من الدّاخل مع الاستعانة بنوعٍ مِن القطرات الّتي تتّسعُ بها الحدقةُ، ويصبح بياضُ العين أكثر ليونة ومرونة. فجأة يحدثُ شيءٌ عجيبٌ، لا يُمكنُ للطّبيبِ فهمه أبداً ولا استيعابه: إذ بينما كانَ منشغلاً بالفحص وينظر بمنظاره الصّغير إلى عيني اليُمنى، وهو يحاول بيده توسيع الجفن إذا بي أرى ما لا يمكنه هو أن يراه؛ أرضٌ قاحلة، وفيها شمس حارقة ضاربة بقوّة تعمي الأبصار. كلّ شيء بين التراب المتشقّق جافٌّ بشكل قاسٍ وجارحٍ، ولا أثرَ للماء أو النّبات! ابتلعتُ ريقي من هول المشهد،

والتزمتُ بصمتٍ دفين. ختَمَ هُو فحصهُ الرّوتينيّ، وكتبَ لي في ورقة صغيرة اسم دواءٍ كان عبارة عن قطراتٍ طبيّة فيسيولوجيّة عاديّة جدّاً، وانتهت الزيارة التي لم يكن لها أيُّ داعٍ من وجهة نظره، لأنّهُ وجدَ عينيّ كالعادة تتمتّعان بصحّة جيّدة. أخذتُ الورقة بين يديّ، وخرجتُ وزوجي وأنا في حالة ذهول عجيب من منظر تلكَ الأرضِ القاحلة !

أعرفُها روحي، إنّها لا تُجاملني أبداً ولو سهواً أو على سبيل الدّعابة. لقد كانتْ حاضرةً بقوّة في تلك العيادة، بل اختارتها كمكانٍ مناسبٍ، لتقول لي: "انظري، أنتِ الآن في مقام الصّحراء. هذا هو مكانُكِ الحالي!". لم يغمض لي جفنٌ في ليلة ذلك اليوم، كنتُ أنتظرُ إشارةً من روحي، كنتُ أعلمُ أنّها تنظرُ إليّ من الدّاخل وتسبر أعماقي بقوّة، وكنتُ أنا أنتظرُ كلمة جديدةً صريحةً منها، لتشرح لي ما الّذي حدث؟ ولماذا دخلتُ

الآن إلى الصّحراء، بعد أنْ كنتُ طيلة السّنوات السّابقة في غابة الجزيرة البركانيّة؟ وفجأة جاءني صوتها قويّاً، هزّني من الأعماق: "أنتِ على أبواب عزلة جديدة، لقد نسفتُ كُلَّ ما بنيتِه في هذه السّنوات من كتابات، ذاكَ زمنٌ وانتهى، وهذا زمن جديد، وهذه الصّحراء الّتي أنتِ فيها الآن، عليكِ أن تحوّليها إلى فردوس خالص، إلى غابة حيّة، تكونُ جواباً للعهد الجديد". "كيفَ يا روحي؟" سألتُ بتلهّف. "بما فيك من طاقة إبداعيّة". قالت مجيبةً، ثمّ ساد صمتٌ رهيب، أغمضتُ عينيّ على إثره وغصتُ في نومٍ عميقٍ .

وحده العارف يعرفُ معنى أن يكون في الصّحراء، وحده يُدركُ أنّ الصّحراء فيها السّرابُ والوهمُ، وفيها الحرّ واللّظى، وفيها الثعابين والعقاربُ، وفيها أيضاً الواحاتُ والحقائقُ الكُبرى. يا لشقائنا يا إلهي نحن أهل العرفان! وكم هي قويّة هذه الرّوح الّتي تسكن بداخلي، تزجرني وتجلدُني كلّ يوم بسوطٍ جديد. الآن فقط فهمتُ لماذا كنتُ كلّما جمعتُ أغلفة إصداراتي في صورة واحدة لأستمتع بالنّظر إلى ما حقّقته من إنجازاتٍ، كانت هي تبادرُ بسرعة إلى محوها ونسفها بدون أدنى شفقة ولا رحمة؛ لقد كانتْ تُعدّني لعهد جديد، وتلكَ "الأنا" الإبداعيّة الّتي خلقتُها لما يزيد عن عشرين سنة، لمْ تعُد تعنيها في شيء، أنا الآن طفلة جديدة،

ولقد عدتُ إلى الفُرنِ "الفرعونيّ" الكبير، وعليّ أن أبدأ في بناء حضارتي وأهراماتي...

نعم، أهراماتي يا عزيزي القارئ، هل تستغربُ ذلك، وتستكثره عليّ؟ لقد سبق وبنيتُ أزيد من خمسين هرماً، وأعني بها كتاباً، وبهذه الأهرام بنيتُ حضارةً، وهي في عالم البرزخ قصور فردوسيّة فيها الخدم والحشم، والحدائق الزّاهية، والأنهارُ الفيّاضة باللّبن والعسل والخمرة البيضاء، والجدرانُ المزيّنة بالزّخارف والرّسوم العجيبة، والأرضيّاتُ المفروشة بالأبسطة الملكيّة العظيمة، إنها قصور أشدُّ وأكثر فخامة من قصر آسية، لقد رأيتُها، وأنا السيّدة الحاكمة فيها! لكن مهلاً يا عزيزي، إنّني أسمعُ الآن وأنا أرقن لكَ هذه الكلمات صوتاً آخر ليس بالغريب عنّي، إنّه ملاكي الحافظ صاحب الصّوتِ الجهوريّ، هل تعرفُ ماذا يقولُ لي؟ آآه أنتَ قبل سماع كلامه تريدُ الآن أن تعرفَ ما الفرقُ بين الملاك الحافظ والرّوح، وكم من صوتٍ يرافقني،

وكيف أستطيع التّمييز بين هويّة كلّ صوتٍ. اسمع يا صديقي؛ هذه أمور بسيطة جدّاً، لكن خرّبها وعقّدها فقهاء الحسرة والفشل الذّريع، ومجانين الرّقاة وبعضُ معتوهيّ الصّوفيّة ومدّعي العرفان. اسمع، ليس بالشّيء الخارق أن يكون عندكَ ملاك حافظ وروح، كلّنا نملكُ هذه العناصر، وأشياء أخرى من قبيل النّفس والقلب بكلّ صفاتهما وتدرّجاتهما، وحينما أقول ملاكي الحافظ فإنّي أعني به قريني النّورانيّ، وهذا لا ينفي أيضاً وجود القرين الشّيطانيّ وكلاهما أمرهُما بيد الله. ولا تقعد هناك تتخيّل قرينكَ الملائكيّ بأجنحة ووجه صبوح مليح وما إلى ذلك من الخزعبلات الّتي تجدها مسطورة في الكتب الصّفراء. واعلم أنّ الأجنحة إذا ظهرت لكَ –وهي نادراً ما تظهر– فلتدلّ على مرتبتكَ وقوّة بصيرتكَ وقدرة فكركَ على التّحليق في ملكوت الله. وملاكُكَ الحافظُ هو جنديٌّ مكلّف بكَ، ولا شأن له بالكلام المعسول والمجاملات الباهتة، إنّه مأمور برعايتكَ، ومراقبة أفعالكَ وإرشادكَ إلى الفلاح، أمّا القرين الشّيطانيّ فهو مكلّف بخلق حالة من الصّراع بداخلكَ، وهي الحالة الّتي لا بدّ منها من أجل تحقيق نوع من التطوّر والعروج من مرحلة دنيا إلى مرحلة عليا. ولا تصدّق مشعوذاً يقول لك لا بدّ من حرق قرينكَ الشّيطانيّ، لكي تُشفى من أسقامكَ؛ إنّه فقط سيدمّرُكَ أكثر

فأكثر، ويخلق بداخلك حالة من الاهتزاز والانفصام في الشّخصيّة والبلبلة في التّفكير؛ لا تُسلّم نفسكَ للجزّارين يخرّبون ما بناه الله من بنيان دقيق وهيكل عظيم بداخلك. ولتعلم أيضاً أنّ قرينكَ إذا كنتَ رجلاً فهو امرأة، وإذ كنتَ امرأة فهو رجل، ونادرة هي تلك الحالات الّتي تنعكس فيها هذه الصّفات الجنسانيّة، وعندئذ لا يكون الأمر متعلّقاً بالقرناء وإنّما بالرّفقة الرّوحيّة الّتي قد تكون من الجنّ أو غيرهم من المخلوقات الّتي لا يعلمها إلّا الرّحمن وهذه قضيّة أخرى. والقرين كالسّوفت وير الضّروري لعمل حاسوب ما، إذا ما حذفته توقّفت الآلة عن العمل بشكل سليم. إذن لا بدّ لكَ من الرّوح، ولا بدّ لكَ من القرناء بكلّ أنواعهم، ولا بدّ لكَ من النّفس بكل تدرّجاتها، ولا بدّ أيضاً من سيّدة الهيكل الملكيّ. لنعد الآن إلى صوت الملاك الحافظ، إنّه مازال ينطقُ بكلام صادمٍ، اسمعه معي: "يا لسذاجتكِ أيّتُها المسكينة الغريرة، روحكِ نصبتْ لكِ فخّاً خطيراً، وأنتِ وقعتِ فيه عمياء لا ترين ما أمامكِ. أتفكّرين حقّاً في تحويل هذه الصّحراء الجديدة إلى فردوس آخر؟ وهلْ لكِ قصور في البرزخ أيّتها السيّدة؟ آسية طلبت قصراً واحداً، ولم تسلم من بطش "الفرعون الظّلمانيّ". وأنتِ بنيتِ قصوراً ومملكة عظيمة بما كتبتِ من حروف نورانيّة، وعلى الرّغم من كلّ هذا فأنتِ

لليوم مازلتِ في الفُرن الفرعونيّ الإبراهيميّ الّذي كان هو الآخر فخّاً أكثر خطورة من فخّ الصّحراء. أنتِ تقولين إنَّ ألسنة النّار المتأجّجة كانت لا تحرقُ منكِ شيئاً، وتعتقدين أنّكِ أنجزتِ بعدم الاحتراق هذا شيئاً عظيماً، والحقيقة أنّكِ لم تفقهي المعنى الحقيقيّ من الفرن الإبراهيميّ الأوّل، وكنتِ تظنّين مثلك في هذا مثل العديد من العارفين أنّ إبراهيم لم يحترق، لا ثم لا أيّتها الصّبيّة، لقد احترق واحترق واحترق، وخرج من تلك النّار بذرة جديدة، صالحة للزّمن الآتي. وحينما قلتِ وأنتِ وسط ألسنة اللّهب يا نار كوني بردًا وسلامًا عليّ كما كنتِ على إبراهيم، كنتِ تنطقين الكلمات وأنت تجهلين مدلولها الحقّ، النّار يا أسماء حينما تكون برداً وسلاماً، فهذا لا يعني أنّها لا تحرق، بلى هي تحرق أكثر من حرق النّار السّاخنة، إنّها تحرق ولكن بلهَب باردٍ، وهذا النّوع من اللّهب هو الّذي يصلح لصناعة الإنسان الكامل. وروحكِ الآن، إذا عادت بكِ إلى الصّحراء، فهي قد فعلتْ ذلكَ لأنّها تريد أن تقولَ لكِ: انظري إلى قصوركِ الآن، لقد هدمتُها كاملةً، وانظري إلى أنهار العسل والخمرة البيضاء، وانظري إلى البحار، والحور العين والغلمان، وإلى الجاه والسّلطان، لقد أتيتُ على كلّ شيءٍ، حتّى لا تلتفتي إلى أحدٍ بعدي باسْمِ الحرف والكتابة. وهذه الصّحراء الآن هي فرنُكِ

الجديد، وهي الّتي بها ستخرجين من حضرة "الفرعون"، إلى حضرة جديدة صالحةً للزّمن القادم!".

هل سمعتَ يا عزيزي القارئ ما سمعتُ؟، إنّ ملاكي لا يضع الأصباغ ولا المساحيق فوق الكلمات، إنّه ينطقُ بالحقيقة، وهي إن كانتْ قاسية فإنّها تشرح ما كان غائباً عنّي لفترة قريبة من الزّمن. والآن، الآن فقط بدأتُ أفهمُ تلكَ اللّحظات العنيفة الّتي كانتْ تُظْهرُ لي فيها روحي عدم اكتفائها بما كان يشغلني من عبادة إلهيّة حروفيّة محضة. هل تعلم يا عزيزي أنّ هناكَ عبادة تمحو عبادة؟ وأن الإنسان يتدرّج من مقام تعبّدي إلى مقام آخر أكثر سموّاً وعلوّاً إلى أن يصل إلى المقام المحمود؟! هذا ما حدث لي بالضّبط، فالإنسانُ حتى في مجال العبادة الحروفيّة لا بدّ له من الصّعود سلّماً سلّماً، وكلّما صعدَ أكثر فأكثر، أُلْغِيَ ما كان من تعبّد سابق، وما جمعَ فيه من مكتسبات روحيّة. تصوّر يا عزيزي القارئ، لقد مرّت بي في أيّام سابقة حالة من الفوران والغضب لدرجة أنّني أفرغتُ مكتبتي من كلّ الكتب، لقد رميتُ كلّ شيء في حاوية النّفايات، وتلك الّتي بقيت لليوم وتعدُّ على رؤوس الأصابع لم أرمها فقط لأنّ لحظة الفوران مرّت ولم أعد ألتفتُ إليها ولا أعرفُ حتّى ما فيها، أنا الآن لا أملكُ كتباً بالمعنى الحقيقي والثّقافيّ للكتاب، ولا حتّى عندي خزانة كتب.

فأنا ما كنتُ أعلمُ أنّني مجرّة عملاقة تسبحُ في حليبيَ الكواكبُ والنّجوم، الثّقبُ الكوكبيُّ الأسودُ بداخلي حينما استقيظَ ذات مساء أخبرني بذلك. ومنذُ ذلك الحين وأنا أرمي كلّ شيء وراء ظهري وأمضي دائماً إلى الأمام، أدور وأدور وأدور وفي الجهة الأخرى ينتظرُني بفرحٍ عظيم ثُقبٌ كوكبيٌّ آخر أبيض اللّون أراه يتشكّلُ يوماً بعد يوم، يعِدُني بحياة جديدة وأفكار أكثر خُضرة وإزهاراً تنبعثُ من جنّة أراهَا تحت كوكبةِ القلب مُباشرة، وأسمع زقزقات طيورها الصّاخبة وأرى نورها الوهّاج يقذِفني بسرعة هائلة نحو عالمٍ جديد. وحينما أقول أو أتحدّثُ عن الاستيقاظ في كتاباتي، فهذا لا يعني أنّني كنتُ في حالة نوم أو غفلة، وإنّما أعني به إدراكَ وجوب الانتقال من مرحلة إلى أخرى، لأنّ القلب حيٌّ لا ينام، والرّوح كذلك، وهي دائما يقظة تراقب كلّ ما يحدث بداخلي من عروج وارتقاء. وإلّا فما معنى هذه المحرقة الّتي أشعلتْها الآن حينما أخذتني إلى الصّحراء، وليس هذا فحسب، لقد كان يحدثُ لي شيء آخر غريب حقّاً في السّنوات الماضية: كنتُ كلّما ختمتُ تأليفَ كتابٍ ما، لا سيما في النّقد، أو التّرجمة، أُصبتُ بحالة من الغثيان الشّديد ودوار في الرّأس. اليوم فقط فهمتُ أنّني كنتُ أصابُ بأعراض التّسمّم الغذائيّ، الّتي ماكانت تمرّ إلّا بعد أن أتقيّأ كلّ ما في معدتي. يقول

ملاكي إنّني كنتُ آكل حروفاً مسمومةً، وأسأله وهل هناك شيء في الكون مثل هذا، لقد كانت حروفاً يكتبها أهل الله، فلماذا هذه القسوة يا صاحبي؟

يجيبُني بسرعة فائقة: "لا أحد غير الله يُمكنه أن يُحدّدَ إذا كان الكاتبُ الّذي تمثل بين يديْك كتُبه ونتاجاته من أجل قراءتها ونقدها أو ترجمتها عارفاً باللّه أم لا، فهذه قضيّة خاصّة بين العبد وخالقه. ومن يعرفُ اللّهَ ينْشغلُ به لا بغيره، وكثير همُ العرفاء المعروفون بين النّاس بهذه الصّفة، ليس لهم من العرفان شيءٌ في عُرف خالقهم، لأنّ الرّياء يحرقُ كلّ شيءٍ. والعارف الحقّ يا سيّدة الصّحراء مجهول في الأرض وفي السّماء أيضاً، ومعروف عند معبوده فقط. وأنتِ من المحظوظين جدّاً أن زرع البارئُ في أرضِ بدنكِ روحاً يقظة منذ الفطرة الأولى، كلّما حاولتِ أن تبني بكتُبِكِ ونتاجاتكِ الغزيرة حضارة في صحراء قاحلة أتتْ هي، وأحرقت كلّ شيءٍ ليبقى راسخاً في قلبكِ اسم واحد، ووجه واحد، ليس له شبيه ولا مثيل: خالقُك الّذي ليس قبله ولا بعده شيء، ولا يعرفُ ظاهره ولا باطنه أحد. نعم يا أسماء، لقد كنتِ تشربين من كؤوس مَن انشغلتِ بحروفهم السمَّ الزّعاف، ونحن جميعنا، ملائكتُكِ ونفسكِ وروحكِ وقلبُكِ، كنّا هناكَ نرى ونسمع، ونتركُكِ تشربين إلى آخر قطرة في كلّ

كتاب، وكنّا نعلمُ جيّداً أنّ ذاكَ السمَّ هو نار نريدها أن تحرقكِ، مادامت نار الفرن "الفرعونيّ" لم تكن كافية لأن تجعلكِ رماداً كاملاً بدون لونٍ ولا رائحة. وقد نجحنا في ذلك نجاحاً منقطع النّظير، انظري إلى نفسكِ الآن، إنّكِ في الصّحراء، ولا هدف، ولا رغبة ولا أمنية تلوّثُ فكركِ وقلبكِ. وما عُدتِ تُريدين أن تبني قصوراً برزخيّة، ولا أيّ شيءٍ من هذا القبيل، ولأجل هذا كافأناكِ بجائزة كبيرة، لقد أصبحتِ قادرة على رؤية سيّدة الهيكل الكبرى، فهل عرفتِ الآن من تكون؟! لا تُجيبيني الآن، ويكفيني أن تعرفي أنّنا خطّطنا أيضاً لنزولك إلى الدّركِ الأسفل من الجحيم، كنّا نريدُك أن ترين أين يقيمُ الكثير ممّن كتبتِ عنهم؛ كلّ من يمتهنُ الشِّعرَ يا طفلتنا الحبيبة، فهو في الجحيم، أعلمُ أنّ العبارة قاسية على قلبكِ، لكن عليكِ أنْ تعرفي أنّ الشِّعْرَ نارٌ تُطهّر، ولا بدّ لكاتبه من هذا المسار العجيب.".

أنتَ على حقٍّ يا ملاكي الحبيب، إنّكَ قصيدة تحدّثُني بلسان الشِّعْر، بل أنتَ الشِّعرُ نفسهُ، فباللّه عليكَ قل لي؛ أيَّ سرٍّ هذا الّذي تُخْفيهِ عنّي، تورّمتْ قدمَايَ مِنَ الوقوفِ ببَابكَ وما منْ أملٍ، كمْ أنتَ قاسٍ يا صاحبَ النّون والقَلَم، لا غيومَ في الأفق، لا مطر لا شمس ولا قمر، أيْنَكَ قل لي فأنا هُنَا من مقامِ العشقِ أناديكَ، كيفَ قهرتَنا جميعاً أيّها الشِّعْرُ: امرؤ القيسِ ماتَ شريداً

في الصّحارى ونزار تعبَ من شدّة الركض خلفَ عِشْقيّاته الكثيرة، والسيّاب صرعَهُ المرضُ وبودلير قتلتْهُ باقاتُ الخشخاش الأحمر، كيف فعلتَ بنا هذا وأنت هناك بعيد جدّاً عنّا، قل لي كيف طاوعَك قلبُكَ وغبتَ عنّي كلّ هذه السّنين من عُمري يا حبيبي، يا صاحب السِّرِّ الأخضَر، أسألُ عنكَ قلبي فيقول إنّكَ بين الدّمِ والطّين، بين الماء والنّار، بين الزّهر والشّوكِ، بين الذّهَب والحديدِ وبيْن النّعيمِ والجحيمِ. آآآهٍ يا حبيبي يا صاحبَ العَقلِ السّامي أعلمُ أنّهُ لا بدّ لي من سعير الغيابِ كيْ تبوح لي بسرِّكَ وهاقد آن الأوانُ لتعرفَ أنّني طرقتُ ذاكَ البابَ الضيّقَ ففتحتَ لي ودخلتُ باحثةً عنْكَ ولم أعرفْ أنّكَ نصبتَ لي فخّاً جديداً وجذبتَني إليْكَ، وما وجدتُ باباً آخر للفرار منكَ. آآآهٍ يا حبيبي الشِّعر يا صاحبَ القلبِ القاسي كيف طاوعتكَ روحُكَ وفعلتَ بي هذا وأخذتَني على حين غرّةٍ إلى الجحيم. آآآي أنهارُ النّار تُذيبُ قدميَّ وتفتحُ عينِي الصّنوبريّة لأراك أخيراً جالساً هناك على عرشٍ من ماء! قل لي كيف حدث هذا بل كيف يجتمعان في حضرتكَ النّار والماء والتّرابُ والهواء ثم أنتَ وأنا؟! هل اجتمعنا حقّاً يا حبيبي وهل صهرتِ النّارُ شوائبي لأراكَ وجهاً لوجهٍ وتعرفَني وأعرفكَ؟ نعم في الجحيم التقيْنا، وهناك رأيتُ معكَ عنترة والثعلبيّ وجاك بريفير وتوماس إليوت وصاحب

الطّريق آرثر رامبو. آآآي يا حبيبي أيّها الشِّعْرُ يا صاحبَ البصيرة المُتّقدة أكان لابدّ من هذا الجحيم كيْ تُزْهرَ القصائدُ فوق أناملي؟ نعم لا بدّ من كلّ هذه المحارق؛ محرقة الحروب ومحرقة الخيانات والخيبات المريرة كي تولد القصائدُ مضرّجة بالدّماء والحياة. ولأعرفَ بعد النّار معنى الجنّة والنّعيم. نعم لا بدّ من الأضداد لأراكَ يا سيّدي الشِّعْر لا بدّ من جنون الفراغ وحكمة الامتلاء، لا بدّ من بحر الأسرار ومحيطات النّقطة بل لا بدّ منكَ لأنَكَ الغرامُ والحرفُ والكلامُ، ولأنّكَ سيّد السّلام ولأنّي أنتَ أيّها الحبيبُ الأزليّ يا صاحبَ البابِ والمفتاحِ والبوحِ والكتمان.

نعم لقد سمعتُ كلماتكَ وسكرتُ بها وأنا الآن يا ملاكي المُرشد، أتفكّر في حجم هذا الحبِّ الّذي تكنّهُ لي روحي، لقد جعلتني أخوض التّجارب كلّها فقط لتقول لي إنّها تعشقُني، وهذا يعني أنّ من يعشقني حقّاً وحقيقةً عشقاً عظيماً هو السرّ الأكبر الّذي بين جوانحي. ولا يريدني أن أنشغل إلّا بإعداد نفسي إلى الزّمن القادم: زمن الفتوحات المعرفيّة الكُبرى. لأجل هذا أوجد في الصّحراء، لأختلي بروحي الحبيبة، وتسكنَ إليّ وأسكن إليها وأعرفها أكثر فأكثر. إنّني في خلوة كبيرة إذن، لا أعتقد أنّ أحداً مرّ بها إلى الآن. وأنا حينما سألتُ روحي لماذا كان الحرفُ

مسموماً، أيْ ذاكَ الّذي كنتُ أقرؤه في كتبِ العديد من الأدباء الرّاحلين منهم والباقين على قيد الحياة وبمختلف اللّغات، قالتْ لي، لأنّني حينما كنتُ أنظرُ إلى الحرف، كان يكشفُ لي عن نفسهِ، وكنتُ أرى صاحبه أو صاحبته عارية من كلّ شيءٍ، وحالة الفضح هذه كانت تخلقُ بداخلي نوعاً من الارتباك، وهو فضح جوّاني كان يجب أن يتبعه ستر، وبين الكشف والفضح والسّتر كنتُ أتعرّضُ لأذى عوارض الأبجديّة الرّوحيّة على الرّغم من ثقل وكثافة نورانيّتي، وهذا الأذى كان يتحوّلُ إلى نوع من الاستنزاف الطّاقيّ، لم أكن أفهمُ فحواه إلّا بعد أن خضتُ تجربة الانخراط في عوالم وسائل التّواصل الاجتماعيّ، فكان أن فقهتُ أنّه أصبح من الواجب عليّ أن أحتجبَ عن الجميع، وأصنع لنفسي درعاً طاقيًّا أكثر قوّة ومتانة وصلابة، وليس هذا فقط، لقد فهمتُ أنّ المكتبات تبيع السّموم القديم منها والجديد ونحن نأكلها دون أدنى وعيٍ بخطورة الموقف. فمن يحمي القارئ من خطورة المعرفة الدّنيويّة؟ إنّها معرفة مزيّفة، تكتبها أقلام كاذبة، تحبُّ تنميق الكلام وإخفاء الجوانب المظلمة في شخصيّة كلّ كاتب، ليس من السّهل أبداً أنْ تختارَ كاتبكَ أو كاتبتَكَ المُفضّلَة. لكي تنجح في ذلكَ عليكَ أن تكون قارئاً ذو حظّ عظيم. أقول هذا وبين عينيّ الآن صورة سيّدتنا خديجة

الكبرى (ع)، وأتفكّرُ وأتدبّرُ في الطّريقة الّتي اختارت بها كاتبَها ليس المُفَضّل، وإنّما الأوّل والأخير والأوحد؛ لقد كان محمّداً خير البريّة كلّها؛ دعوة إبراهيم الحنيف (ع)، وبشارة عيسى (ع). لم تشهد الأرض بأسرها كاتباً مثله، ليس لأنّه كان يكتبُ الوحيَ بيديْه، ولكن لأنّه كان مهبِطه ومستقبِله، وكان الكتابُ الكريم آنذاك صوتيّاً، تسمعه آذان الرّوح والقلب بصوتِ جبريل الأمين حامل الرّسالات ومُبَلّغ الوحي بكلّ الألسن واللّغات. وكانت خديجة قارئة وسامعةً فريدة ومن نوع خاصٍّ جدّاً، ذكيّة تفهمُ للعُمقِ ما كانتْ تسمع وما بدأت تكتبُهُ فيما بعدُ بيديْها الطّاهرتيْن من حروف سامية وعلى قدر بليغ من القوّة والقداسة. وأنتَ عزيزي القارئ عليْكَ أن تكون كخديجة، لتعثر على كاتبٍ يكون كمحمّد يحملُ في صدره كتاباً عظيماً. ولا شكَّ سيأتي ذلكَ اليوم الّذي ستكتشفُ فيه، أنّكَ أضعتَ عمركَ سدىً وأنت تقرأ لكُتّاب لا يعرفون ماذا يريدون مِن الحياة، ولا مِن الحرف نفسه. يُخرّبونَ أنفسَهم والقرّاء معهم. ليس من السّهل أن تكون روحكَ كروح خديجة، ولا أن تجدَ كاتباً يفعل بكَ حرفُهُ ما تفعلُه حروف الوحي بالنّاس، إنّها تشفي، أتعلمُ ذلك؟! أعطني اليوم كاتباً أو كاتبةً واحدةً حروفها تشفي أسقام الرّوح. سوف لن تجدها، وإذا وُجدَتْ هِي فليس هنا، على هذه المنصّات الرّقميّة. وإذا كنتَ محظوظاً

جدّاً، وقُدّرَ لكَ أن تجدهَا عليها، فتأكّد أنّ هناك علامات خاصّة جدّاً ستعرفُها بها، أعطيك واحدة منها فقط، إذا استوعبتَها جيّداً فسوف تجد العلامات الأخرى: الكاتبَة الّتي عليها العين أو الكاتب الّذي عليه العين، ولا فرق هنا بين ذكر أو أنثى، يُدركان معاً جيّداً أنّ الحرفَ الأجوف من المعاني الخالدة مطيّة الشّهرة، وأن الكُتّابَ المُزَيَّفين مطيّة السّلطة، لذا فهما لا يثقان أبداً بمَن قد يقول لهُما إنّكُما أفصحُ وأعلمُ أهل زمانكما، لأنّ الشّهرة عندهما قَيْد وإثمٌ لا يُغتفر، أمّا الكتابة الحقّة فهي حريّة وعبادة. فمن يُصلِحُ الملح إذا فسد يا صاحبي، ومن يأتينا بخديجة ومحمّد مرّة أخرى؟!

المعرفةُ الّتي في قلبكَ يا عزيزي القارئ، لا يُمكنُكَ أن تجدها مسطورة في كتابٍ أبداً، ولا يُمكنُكَ أنْ تسمعها من أستاذٍ أو مُعَلِّم، إنّها محفورة في صدركَ أنتَ فقط، وبها يُمكنُكَ أن ترسم طريقكَ الخاصّ بكَ أنتَ دوناً عن بقيّة البشر. إذا اكتشفتَ هذا النّوع من المعرفة، ستشهد بعينَيْكَ كيف سيفيضُ النّور من بين أصابعكَ، وكيفَ ستخرجُ الحكمة من بين شفتيْكَ كبذرة خضراء نقيّة طاهرة من جوف أرض حبلى بالمطر والخير.

بمعرفتِكَ المزروعة في قلبكَ ستتعلّمُ رُوَيْداً رويْداً كيف تقرأُ أحلامكَ، وتفسّرُ رموز رؤاكَ، والأهمُّ من هذا وذاكَ كيفَ تُحاورُ

قرينتَكَ الرّوحيّة والحاكم الأعلى لشؤونكَ الدّاخليّة. بلْ كيفَ تصل إلى موازنة دقيقة بين وجود هذين القطبين المتناقضين بداخلكَ، وكيف تعرف بهما طبيعتكَ الرّوحيّة؛ فإذا كنتَ روحاً تغلبُ عليها صفة الأنوثة، فحاكمُكَ سيكون على صورة فتىً بهيّ الحضور، شديد الجمال، مفعم بالنّور والشّباب والطاقة، وصاحب هيبة وسلطان، أمّا إذا كنتَ روحاً تغلبُ عليها صفة الذّكورة فحاكمكَ وسلطانُكَ سيظهرُ على صورة فتاة لم يُخلق مثلها في الحسن والحكمة والمعرفة والبهاء والنّور والوقار. وطريقُكَ سيكون طريقه وطريقها في كلتا الحالتين والصّفتيْن: طريقَ ألمٍ ومحنة عظيمة، لا بد من ذلكَ، لأنه وحده هذا الطّريق سيقودُكَ لما هو آتٍ: خلاصُكَ من الأسر والقيْد.

الفصل السّابع

أسرار هيروغليفيّة

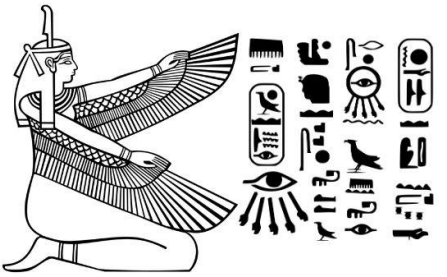

في العشرين من أيّار ٢٠٢٣ انفجر الإتنا؛ أكبر وأنشط بركان في أوروبا كلّها، وتصاعدت حممُه وأمطرتِ السّماءُ بسببه سيولاً من الرّماد والرّمال الحمراء والسّوداء، لدرجة أنّ شرفة منزلي كانت غارقة هي الأخرى في التراب الأحمر، وحينما نظّفتُها بعد خمسة أيّام من واقعة الثوران هذه، عرفتُ لماذا ناداني البركان منذ خمسٍ وعشرين سنة مضت لأقيم في جزيرة صقليّة؟! فالإتْنا جبل عارف باللّه، ووليّ من أوليائه الرّاسخين في العلم، ولا بدّ له من رفيق طريق، وأنا رفيقته الّتي كان يبحث عنها منذ سنوات عديدة. لقد كنتُ في جبل الطّور، ولأنّي أعرفُ أنّه لا بدّ للعارف أن يرى الجحيم، ويعرف بوّاباتها في الأرض، فعلتُ كما فعلَ موسى، من جبل النّور نزلتُ، وذهبتُ إلى جبل النّار في صقلّية لأجد النّاسَ يعبدون العجل. ولأجل هذا أنا لا أؤمن بأولئك العرفاء الّذين يُفرطون في الحديث عن الفراديس

والأنوار والنّعيم وما إلى ذلك من المشهديّات الرومانسيّة والعدنيّة وهُم ربّما لا يعرفون عنها شيئاً. إنّني سيّدة عرفتُ ورأيتُ الفراديس وعشتُ فيها، نعم، لكنّي نادراً ما أتحدّثُ عنها لأنّي تجاوزت هذا النّوع من المراهقة الصّوفيّة، وأرى بقلبٍ ثابت ما وراء الجنان، كما كانتْ تفعل رابعة البصريّة وربّما أكثر، وإنّي لأعلمُ أنّها مازالت تبكي لليوم من هول ما ترى، وأعلمُ أنّ من لا يرى الجحيم على الأرض، ويدخل إليها من فوهاتها البركانيّة، فلا بدّ له أن يُصلح مرآته أو يعالجها بالريّاضات الرّوحيّة. لا يمكننا نحن أهل الله أن نتحدّث فقط عن النّعيم ونُهْمِلَ الجحيم والأرضُ حولنا مندلعة بنيران الفتن والحروب والكراهيّة والحقد. لا يمكننا أن نغمض أعيننا ونتفادى النّزول إلى الأقبيّة ونحمل الماء لعطاشى الله. فأنا جوهرة في الأعماق (انظر كلمة الافتتاح)، تكوّنتُ في العماء الإلهيّ وبمعزل عن الأغيار، وبالوحدانيّة والحميميّة والخصوصيّة الربّانية تسربلتُ فكنتُ من أهل السّتر والسرّ الّذي لا يعلمه سوى الله. ولأنّي أعرفُ أنّه ليسَ من الجيّد أن أكون جوهرة أو لؤلؤة –كما كان يقول أبي رحمه الله–، في أيِّ كهف أو جبل كيفما اتّفق، اخترتُ جبل النّار العظيم، فمن يقدر على النّار يا أهل الله، ومن يدخل بطن البركان اللّدنيّ ليأخذ أو يسرق لؤلؤته؟ لا أحد، فللجبل حرّاسه

وجنوده، وله أيضا سيول الحمم وشواظ النّار والشّهب الّتي يُقذفُ بها كلّ من تسوّل له نفسه بالاقتراب. في الأعماق أنا، وهذه الأعماق ممتلئةٌ بالنّور والبهجة والأسرار العظيمة. ودمعي الآن يتدفّقُ وهذا النّورُ الأحمرُ يجذبُني نحوَكَ، ثقباً كوكبيّاً أسودَ أراهُ، نفقاً مظلماً نحو الأعْلى. هناك في الظّلام نور لم يكتشفهُ بعد أحد، لا تفتحوا النوافذ أسدلوا السّتائر فالمُخلّصُ قادم، قوموا وافتحوا له الأبواب. الدّمعُ يتدفّق حارّاً ومالحاً بين شفتيّ وهذا النّور الأسودُ يرفعُني نحوكَ عموداً أخضر مُعلّقاً بين الزّهرة والمرّيخ، وأنت أيّها الرّاهبُ الجرّاح سيفٌ برّاق يذبحُ الأبصارَ وأنا بين يديْك فوق سرير السرّ جسداً تُعيدُ تكوينَه من جديد لأولد شمساً تكونُ وتداً بين بحر وجبل.

نعم، لا بدّ من الولادة، والولادة لا تكون إلّا بالدّم والألم والدّمع. هكذا يقول ملاكي الحافظ وهو يذكّرني بالزّمن الّذي دخلتُ فيه إلى الحضرة "الفرعونيّة"، لم يكن ذلك حينما كنتُ في الثلاثينيّات من عمري، أيْ حينما رأيتُ نفسي في الفرن "الفرعونيّ"، ولكنّ ذلكَ كان منذ بداياتي الأولى على هذا الكوكب الأرضيّ، وأذكر أنّني رأيتُ قيامة الأرض والزّمان، كنتُ آنذاكَ أبلغ من العمر أحد عشر عاماً، رأيتُ الأرضَ تتفجّرُ ببحار من الدّم، والسّماءَ تتلبّدُ بدخان أسود كثيف، وحينما بلغتُ الأربعين،

رأيتُ القيامة ذاتها ولكنها كانت مصحوبة بزلازل قويّة أتت على كلّ ما هو بناية وبيت وعمار. وعرفتُ بعد ذلك أنني أدركتُ الفناء الكامل وبرزتُ لخالقي مرّة حينما كنتُ طفلةً، ثمّ مرّة ثانية حينما بلغتُ الأربعين. الأرض دمٌ، ونار وتراب وهواء وماء. والسِّرّ كبير وصغير في الوقت ذاته، ضيّق وواسع، إنّه خليّة في جسد حيّ، خليّة جمعت معنى الرّوح العظيم. وحينما أقول الرّوح بصيغة التّذكير فإنّي أعني بها البطل الّذي يأخذك إلى الأعماق الخطيرة جدّاً، لكن قبل ذلك لا بدّ لكَ من الحضرة "الفرعونيّة"، لأن ولوجكَ إليها يعني قبولكَ في مدرسة الأسرار الإلهيّة الكبرى. و"الفرعونيّة" في القاموس اللّدنيّ ليست طغياناً يا عزيزي، ولكنّها أسمى مراحل اكتمال تشكيل الأنا الأعلى؛ أيْ الظهور الكامل للجزء الأهمّ من الوعي الإنسانيّ، أو ما نسميّه بالوعي التّجاوزيّ، ومن سماته في التجسّد الخارجيّ بشكل مادّيٍّ محسوس، معالمُ الزّينة الّتي يتحلّى بها الإنسانُ "الفرعونيّ"، ومنها الكحل الصقيل في العينين كدلالة على كمال الرّؤية وعمق البصيرة اللّدنيّة، ثمَّ الفخامة الملكيّة في اللّباس، كعلامة على الأصل الملكيّ للإنسان الكامل باعتباره من صنعة المَلك القدّوس الواحد الأحد، فتظهر عليه سماتُ المُلك والجاه والسلطان والقوّة والعنفوان. ولنا في نبيّ الله سليمان (ع) أكبر

دليل على ذلك، إذ لو رأيته لوجدته بنفس صفات المُلك التي أشرتُ إليها قبل لحظات، والشّأن نفسه بالنّسبة لنبي الله يوسف (ع)، وهو نبيّ وزير في حضرة ملكيّة فرعونيّة، والأمثلة في هذا الباب من الأنبياء وأولياء الله الملوك كثيرة، وعليه فإنّ مصطلح "الفرعونيّة" أعني به المقام الهيروغليفيّ الّذي به يطّلع العارف على لغة الله المتجلّية في كلّ ذريّة آدم، ولو تركتِ التكنولوجيا المعاصرة وما يسمّى بالتقدّم العلمي الطبيعةَ على حالها، لظهر لك المُلْكُ في كلّ صنعة الله، وسترى الإنسان بالعيون الكحيلة الصّقيلة والنّظرة البرّاقة وبالأهداب الكثيفة الذبّاحة وبالشّعر الغزير، بالضبط كما هو الأمر في مملكة الحيوان، وقد أشرتُ إلى هذا الأمر في كتاب (دزاكرا، إمامُكَ المُنتَظر كما لم يُخْبِرْكَ عنهُ أحد). والمَلِكُ "الفرعونيّ" حينما يتكوّنُ وفقاً للنّواميس الإلهيّة، ويظهر فيه الأنا الأعلى بشكل ربّاني نورانيّ، يُصبحُ نوراً حارقاً قاهراً، لهُ السّلطة على كلّ شؤون المملكة "الفرعونيّة" السّفليّة، فيتمكّنُ من الحكم فيها وإدارة كلّ أمورها بالعزّة والقهر والحرق والإغراق، وهي الإدارة الّتي قام بها الملك النبيّ موسى (ع) حينما قاد فرعون البلاط ووزيره هامان إلى بحر الهيولى الأوّل وهو مَنيٌ إلهي، ليغرق فيه ويولد منه مَلِكاً جديداً ربّانيًّا نورانيّاً، قد آمن باللّه مُسَلِّمًا إليه كلّ مقاليده. ولنتذكّرْ أنّه كما في

الأعلى في الأسفل، لا حُكم إلّا لله. ومتى ما رُفعَ الحجابُ سيرى العارفُ كلّ من حوله من الناس والخلق ملوكاً وأمراء بتيجان وزينة ملكيّة، لأنّ الله أعزّ الإنسان وكرّمه، وحينما أقول الإنسان أعني الخلقَ جميعاً. والمَلكيّة الّتي أتحدّث عنها حالة من الإنصاف والعدل لمَلكٍ وسلطانٍ عادل في خلقه، وهي مرحلة أوّليّة فقط، تنتهي بالبروز أمام الواحد الأحد القهّار، وبالغوص في مائه وسُمّه الملكيّ، وهذا السمّ هو عند أهل الكيمياء: الماء والملح، أو إكسير الحياة. وهو في الطّبيعة ماء المطر. وهو السمّ الوحيد الّذي يحيي ويُميت: "وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّاً أفلا يؤمنون". وحينما يكتملُ مقام المُلْكِ عندكَ عزيزي القارئ، يُصبحُ مسموحاً لكَ الدّخول إلى الأعماق الخطيرة، لكن ليس قبل أن تخلعَ تاجَ الذّهب، وتضع فوقَ رأسكَ تاجَ الشّوكِ. والأعماق الخطيرة هي الجحيم بكلّ تدرّجاتها وصفاتها السّعيريّة منها والسّقَريّة. ولا يكون العارف عارفاً عند أهل الله ما لم ينزل إلى عالم الظلام والعتمات الكبرى. وإلّا كيف ستحاربُ من أجل تخليص بطلكَ العظيم وفكِّ قيده وأسره، لتصعد معه إلى عالم الملكوت الأعلى، ثمَّ تظهر به في آخر الزّمان؟!

يقول ملاكي الحافظ، إنّ الخلاص لا يكون إلّا بالدّم، وإذا هبطتَ إلى الأعماق ولم تجد رأس الذّبيح المُقدّس بانتظاركَ،

فاعلم أنّك أخطأت الطّريق، ستلتفُّ حولكَ الأفاعي، وستكون مُجبراً على قتلها لكي تصل إلى بطلكَ المُنتَظِرِ لكَ وتنقذه وتخرجه من سراديب غيبته، ولكن تذكّر، أنّكَ وأنتَ تُقاتلُ الأفاعي هناكَ بطلٌ آخر ينتظرُ منكَ أن تنقذهُ من جحيمكَ الدّاخلي: إنّه إبليسُكَ الّذي لا أحد ينتظرُ مُخلّصَه بصبر وإيمان قويّ مثله، ويتحمّلُ من أجله كلّ أنواع العذاب والخزي والقهر إلى أن يأذنَ الرّحمن بفكاك أسره! لا تستغرب الأمرَ يا صاحبي، وتأكّد أنّكَ لن تجد عارفاً واحداً يقول لكَ هذا الكلام، لأنّ الحكمة الحقّة طعمها مرٌّ، فاشرب وتجرّع مرارة حرفي، علّكَ تفتح عينكَ وترى ما أراه. لا بدّ أن تمشي فوق الجمر والجليد أيضاً، لا بدَّ أن تدخل صحراء من رمال، وأخرى من ثلوج، لتعلم أنّ العالم الّذي تعيشه يحتاج إلى المعرفة، أمّا روحكَ أنتَ فهي تحتاج إلى اللّامعرفة. ولأجل هذا تجدني أكتبُ بقلم المحو، وأمسحُ من ذاكرتِي كلّ كتاب ألّفتُه بمجرّد أن يصبح ورقيّاً بين أيدي القرّاء. وكم يُعجبني أن أجمعَ كلّ أغلفة كتبي في صورة واحدة، ثمّ ما إن تكتمل أبادر إلى تمزيقها ومسحها تماماً، وأنا أعلمُ أنّني أنفّذ مشيئة الرّوح الّتي تهدم كلّ أهراماتي وقصوري الحروفيّة في عالم البرزخ، وذلك لتحفّزني على الدّخول كلّ يوم إلى صحراء جديدة، والانشغال بزرع بذور أخرى، أصنع منها عالماً أخضر

يكون صالحاً لقدوم الحبيب المنتظَر.

حينما ستنزلُ إلى الأعماق، ستتفجّرُ أرضكَ بالدّماء، وسترى الرؤوسَ الذّبيحة تتناثر كما تفعل حبّات الفشار فوق النّار، وستغرقُ في الدّم والطّين والغِسلين، لكن لا بدّ لكَ أن تقاومَ وتتماسكَ، لأنّ الغائب في السراديب يستحقُّ كلّ هذه المعاناة والألم، بل يستحقُّ أكثر وأكثر وأكثر حتّى تُشرقَ شمس اللّه على الجميع، ولتعلم أنّ الثّمن باهظ جدّاً: إنّه أنتَ. نعم، ستقدِّمُ نفسكَ فداء له، لذا فعليكَ أن تُفكّر كثيراً وأنتَ تنزل إلى الجحيم، هل تريد أن تدخلها كزائرٍ، أم كبطل. لأن البطل وحده هو من يقدّم نفسه فوق مذبح الإله. هذا هو الثّمن، وهذا هو الجنونُ والعقل اللّدنيّ الّذي لا يُقِرُّ به أحد، مهما بلغ من الحكمة. إنّه جنون وعقل أهل الله من الحكماء، وإذا كنتَ لا تعرفُ معناه، فلا تستعجل في الحُكم وانتظر إلى أن تُصبحَ صالحاً لنيل شرف الهبوط إلى الجحيم، ودع الجنان لأهل الحجب بالنِّعَم. عليكَ أن تثقَ بروحكَ، لكي تثقَ هي الأخرى بكَ وتتأكّد من صدق نيّتكَ وعزمكَ على خوض هذه المغامرة العجيبة، عندها فقط ستفتح لكَ أبواب العرفان الحقّ، وستتغيّرُ لغتكَ إلى لغةٍ لا يفهمها أحد، وستصبحُ كتاباتُكَ هيروغليفيّة خالصة فيها الكثير من حِبر الله، ولكي تحصل على هذه الهبة، عليكَ أن تتخلّص من جنون أهل

الدّنيا وأوهامهم المَرَضيّة، وعانق الحقيقة الّتي تُعِدُّكَ إلى خلاصكَ الحقيقيّ، فتُصبحَ قادراً على أن تفهم لماذا هذه الأرضُ تستعرُ بالحروب، ولماذا يقتُلُ الإنسانُ أخاهُ الإنسان، ولماذا يُقتَلُ الأبطال والشّرفاء والأتقياء والأنقياء، ويبقى السّفهاء والأدعياء؟ ستفهمُ كلّ هذا حينما تكون ثملاً باللّه، وصاحب روح بلغت أقصى درجات التّوازن والحكمة، عندئذ ستصعدُ من جحيمكَ وقد أعلنتَ انتصاركَ العظيم واستحقاقكَ للمقام المحمود!

الجحيمُ الّتي أحدّثُكَ عنها دخلها الأنبياء والأولياء، يكفيكَ أن تتذكّرَ ليلة الإسراء المحمّدي، وما حدث من هبوط إلى مركز الأرض، وهو الهبوطُ الّذي لا نعرف بالضّبط كم دام، ولا كم كان عمر تلكَ اللّيلة العجيبة حسب الرّوزنامة الإلهيّة. ولا تنسَ هبوطَ المسيح أيضاً إليها ومكوثه فيها لثلاثة أيّام قضاها في وعظِ الموتى، وبهذا أريدُ أن أقولَ؛ ليس العارفُ عارفاً ما لم يعرف أنّه لا بدّ من تجربة الجحيم، ليس لعيْبٍ فيه، وإنّما لقدرة وحكمة وعمق تفكير، إذ لا يدّعي الكمال سوى الجاهلين، ولا كمال إلّا لله. والجحيم بالنّسبة للعارف نوعان؛ جحيم ذاتيّة وهي الّتي لا بدّ من ولوجها في بدايات التّجربة العرفانيّة بغرض تحقيق درجة الولاية، وجحيم كونيّة وهي الّتي يتمُّ الولوج إليها بعد أن تكتمل التّجربة العرفانيّة وذلك بهدف تخليص شياطين

الأرض من القيود والأغلال والوصول بها إلى مرفأ النّجاة بسرّ الرّحمة والغفران الإلهيّ العظيم، فيكونُ الدّخولُ بذلك دخولَ نبيّ أو وليّ بلغ مقام الخلّة والصّفوة. وليّ يعرفُ الآن أنّ الجحيم هو أيضاً فردوس ممتع! وتأكّد أنّكَ إذا أدركتَ هذا السرّ فسوف تضحكُ كثيراً من كلّ أولئكَ العرفاء الّذين لا يكفّون عن التسوّل، رغبةً منهم في نعيمٍ أبديٍّ، أو في جنان لا ينفدُ نبيذها، ولا تنتهي حورها العين!

حينما دخلتُ إلى الحضرة "الفرعونيّة" الهيروغليفيّة، سقطتُ سقوطاً مدوياً فزع له أهل الأرض والسّماء، كنتُ أرى نفسي مريضةً وممدّدَةً فوق أرض ليست من هذا العالم، وكان يزورني فيها ملوك عظام بلباس باذخ وزينة فرعونيّة هيروغليفيّة خالصة، وكان من بين الزّوار مَلِكٌ صعلوك، ينظرُ إليّ بنظرات فيها الكثير من السّخريّة والاستهزاء، وكأنّه لم يكن يُصدّقُ أنّني السيّدةُ الّتي ستتوّجُ قريباً ملكةً في حفل باذخ وسط حكماء وفلاسفة مدرسة الأسرار. لم يكنْ وحده هذا المَلِكُ السّفيه من يعتقدُ هذا الأمر، بعضُ الدّراويش أيضاً من بقاع مختلفة من العالم الدّنيويّ، كانوا يسترسلون في موجة من الضّحكِ الصّاخب، وهم يشيرون بسبّاباتهم إليَّ غير مصدّقين أنّني دخلتُ إلى الحضرة "الفرعونيّة" الكبرى، وأصبحتُ أرى كلّ روح كما هي

من الدّاخل. وحينما شفيتُ من أسقامي، وخرجتُ من الفرن الهيروغليفيّ الكبير، فهمتُ من كانَ ذلكَ الملكُ الصّعلوك، وأولئكَ الدّراويشُ السّفهاء، بل حتّى أولئكَ النّسوة السّاحرات اللّائي كنّ حاضرات في حفلة تقديمي لكلّ أعضاء المحفل العرفانيّ الكونيّ الكبير. لقد كانوا جميعاً تلكَ الكينونة الّتي عشقتْ أن تأخذَ مكاني، وحينما فشلتْ في الوصول إلى هذا المقام طلبتْ رأسي مذبوحاً فوق طبقٍ من الفضّة: إنّهم جميعاً جعدة بنت الأشعث طالبة القلب الكامل، وقطّام بنت الشّجنة طالبة الرّأس المقدّس. لقد أحبّوني وكرهوني في الوقت ذاته، ومن باب هذا الحُبّ والكره طلبوني، ولأنّني عارفة البلاط الهيروغليفيّ الأولى، كان عليّ أن أعَلّمَ نفسي كيف أحبّهم أو على الأقلّ كيف أقبل بوجودهم ضمن زمرة الملوك الّذين كانوا يأتون لزيارتي. شيءٌ رهيبٌ هذا الأمر، أعلمُ ذلكَ، لكنّهم جميعُهُم الآن ببابي، بعيون لا بؤبؤ فيها، عُميٌ جميعهم ويطلبون رأسي، فما العمل يا أهل الله؟!

أعلمُ أنّني آجلاً غير آجلٍ سأقدّمُ لهُم رأسي، وسأفعل ذلكَ لأنّني أفكّرُ، ولأنّ التّفكير يقود إلى حجب البصيرة، فلا بدّ من التّضحيّة برأسي، لكي أدخل إلى فردوس العشق الحقّ. بل لا بدّ من أن أحرقَ أثر كلّ كتابٍ ألّفتُهُ إلى اليوم، واسم كلّ

أديب أو أديبة كتبتُ عنهما أو ترجمتُ لهما لليوم، ولا يهمُّ إذا انهارت كلّ تلك القصور التي بنيتُها في عوالم البرزخ، فأنا تعوّدتُ على هذا النّوع من الانهيارات والزّلازل الّتي تحدث بداخلي إيذاناً بالولادات الجديدة. تعلّمتُ هذا من رجل رأيته في طفولتي يعيشُ في غرفة بحجم تابوتٍ بالقرب من السكّة الحديديّة ومن صنبور الماء الّذي يشربُ منه سكّانُ الحيّ كلّه. لم يكن في قبوه ذاك شيء، وكنتُ كلّما وجدتُ نفسي في ذلك الحيّ ذهبتُ للوقوف أمام كوّته الحائطيّة تلك لأعرف كيف يحيا إنسان في قبر مظلم لا باب له وبعينين مفتوحتين. بل كنتُ كثيراً ما أتساءل كيف ينام ليلاً في هذا المكان حينما يُصبحُ كلّ شيء مظلماً، وكيف يتحمّل صوت الماء المتسرّب من الصنبور وأصوات صافرات القطار! نعم، لقد علّمني هذا الرّجل أنّه لا بدّ من تركِ جبل الطّور والنّزول إلى أعماق البراكين الأرضيّة لكي نتعلّم كيف أنّ الولادات الحقّة لا تكون إلّا من رحم العتمات، والعجيب في الأمر هو أنّ صورة هذا الرّجل الرّمزيّة تكرّرت في حياتي لمرّات أخرى، فمثلاً في مرحلة الدّراسة الجامعيّة بمدينة مرّاكش، رأيتُ امرأة كانت تعيشُ في غرفة أصغر من كوّة رجل السكّة الحديديّة، وفي تلك الغرفة كانت تضع ملابسها وبعض كتبها ولا تدخلها إلّا حينما يحين وقت النّوم ليلاً، فقد كانت

طالبة تعدّ رسالة دكتوراه في القانون الدّوليّ، والغريب في هذا كلّه أنّ اسمها كان "حياة"، وكانت صورتها هذه تخلق بداخلي حيرة كبيرة: كيف للحياة أن تعيش في قبر؟ يا لها من معضلة كبيرة! وفي صقلّية صادفتُ رجلاً يعملُ في تابوت من حجر، وكان هذا التابوت عموديَّ الشّكل، وأقصد أنّ الحانوت الّتي يعملُ فيها كانت عموديّة الشّكل، وتكفي لجسده واقفاً أو جالساً دون أن يفكّر في تمديد رجليه، وأمامه لوح صغير من الخشب يُصلحُ فوقه ساعات الزّبائن، لقد كان الرّجل يا صاحبي ساعاتيّاً، ولك أنتَ أن تتساءل بدلاً منّي: كيف استطاع القبرُ أن يحتوي الزّمنَ وصاحبَه؟! نعم، كلّ التحوّلات تتمّ في الأقبيّة، وتحتاج إلى الظّلام، وفي الظّلام فقط يُمكنُكَ أن ترى وتُدركَ أنّكَ غرفةُ تحْمِيضٍ مُتحَرّكَة وفي عينيْكَ يوجدُ كلُّ شيءٍ: حوضُ التّسْخِينِ وميزانُ الحرارةِ المِخْبَريّ، والمُؤقّتُ وملاقطُ التّعْليق والمحلُولَانِ المُبَيِّضُ والمُظْهِرُ، وكذا المُرَسِّخُ والمُثَبِّتُ. وأنّ قلبكَ مثلي حانة حمراء أُدْخِلُ إليها العالمَ الكامِنَ لأغسلَهُ وأجَفِّفَهُ بنورِ العشْقِ إلى أنْ يُصبحَ كلُّ شيءٍ فيه صوَراً تتحرّكُ أمامِي. سُعدَاء أنتُم لأنّكُم لا ترَوْن، أمّا أنا فقد شِخْتُ ممّا أرى، وما باليدِ حيلة، وروحي طفلة، تغمضُ عينها لترى كلَّ شيْءٍ: البئرَ والبحْرَ، القصورَ والخيامَ، الحمامةَ والغرابَ، الأحياءَ والأمواتَ، الضّبعَ والذّئب،

والسَّحَرة المحلّقين، والشّياطينَ الزّاحفين، وأنهار إرم ذات العماد، وكهوفَ القطران والزّئبق، فلا تطفئوا الشّموعَ، وأنتم في الحانة أرجوكُم، فالعتمة تبوح بكلّ شيء، وتُشْعِلُ ما يطفئه الضوءُ، وإنْ لمْ تُصدّقوني، فاسألُوا المُصَوّرَ الكبيرَ، صاحبَ العينِ الحوراء، والقلبِ الزمرّديّ، ساكنَ جبل قَ، يُخْبِرْكُمْ بكلّ شيءٍ عنّي وعن حانتي!

حينما قدّمتُ رأسي لجعدة وقطّام في بلاطيَ الدّاخليّ، تمّت عملية الفصل عن الجسد، ورأيتُ أخيراً سيّدة الهيكلِ الملكيّ، كانتْ تُرضعُ طفلها الصّغير. وحينما سألتُ ما اسمُها، سمعتُ ملاكي الحافظ يقول: إنّها أنتِ، صقيل. والطّفل السيّد المخلّص صاحب الزّمان. صرختُ بمجرّد أن سمعتُ هذه الكلمات، وطلبتُ الخروجَ بأقصى سرعة من جسدي البلاط، بل من جسدي الهيكل. وجاء نسر أحمر قويّ البنية حملني وطار بعيداً عن المكان، وأنا أعلمُ أنّني وصلتُ إلى مرحلة التحوّل النّهائيّ بداخلي، وأنّني أصبحتُ روحاً خالصة صافية متعبّدة بقلب مطمئنّ أمام ما حدث بداخلي من معجزة! لستُ يا صاحبي سيّدة هذا العالم، ولكنّني جزء منه، والمعجزة الّتي أحدّثُكَ عنها وقعت في قلوب أخرى غير قلبي، ولأنّها وقعتْ في الدّاخل فلا بدّ أنّها تقع في الخارج أيضاً، ولا بدّ أنّه سيأتي ذلك

اليوم الّذي تتعدّدُ فيه التّجارب ويُصبحُ زمن ظهور الإمام واقعاً حقيقيًّا لا ريبَ فيه.

امرأةُ الأعماق أنا، وكلماتي تُشعلُ الحرائق في أفئدة من يقرؤها بنيرانها وأنوارها، وهي تحوي معاني ظاهرة وباطنة، لكنّ القارئ الغافل سيحاول كالعادة أن يحدّد فيها معنى واحداً بغية الوصول إلى لغة رسميّة واضحة بسيطة كتلك الّتي تعلّمها فوق المقاعد المدرسيّة والجامعيّة بجهد دنيويّ محدود. لكن ماذا لو ندخل إلى الكلمة من طبقاتها العليا، ماذا لو دخلنا إلى الأفكار الإلهيّة؟ لا شكّ سنكتشف أن كلّ أضمومة من الكلمات لها أكثر من معنى، وأنا إذا كنتُ قد نزلتُ من جبل النّور، ودخلتُ إلى صحرائي، ثمّ بعد ذلك إلى بركاني فإنّما فعلتُ هذا من أجل أن أمحو ما بقي من أثر فيّ من المعرفة الدّنيويّة السّابقة، والآن فقط أكتشفُ أنّه هنا في الأعماق البركانيّة يوجدُ جمال جارح وذبّاح، وأنا فيه أنظر إلى المُطلق ومعانيه الدّاخليّة الرّهيبة، وفوقي شمس عظيمة تجعل كلّ شيء يلمع من حولي، وقد تعتقد أنّني فقيرة في عزلتي ولا أملكُ شيئاً، وذلك لأنّكَ لا ترى أشجاري المثقلة بالثّمار الحمراء، ولا ترى فردوسي المتدفّق بالعسل والنّبيذ، ولا بحاري الممتلئة بالصّمغ واللّبان الذّهبي، ولا أرضي المنتشية بالبذور، ولا تراني وأنا أصغي إلى الكلمات

المتهاطلة من النّبع المقدّس، بل لا تراني وأنا أتأمّلُ منتشية وجه ذاك الطّفل المقدّس المُلَغَّز بالجمال الباهر، وإلى أمّه صقيل الرّائعة البهاء والضياء. أتعرفُ لماذا لا تستطيعُ أن تراني؟ لأنّني عارفة يكرهُها ولا يطيقها عرفاء زمانها لا سيما الأدباء منهم، عارفة أطحتُ بجدار الكلمات القديمة، وبنيتُ في الأعماق كلمات جديدة غير آبهة بهؤلاء البشر الّذين يقدّسون أضرحة وأدخنة الماضي وحممه المخيفة. عليكَ أن تعلم يا عزيزي أنّه آن الأوان لأن تُصبحَ فيهِ الكلمةُ إنساناً يتألّقُ في الظّلام. إنساناً يتصالحُ مع العتمات ويعرفُ كيف يبجّلُها لأنها أمّه الّتي خرج من رحمها ولها عليه سلطان. إنساناً يستطيع أن يحترم العتمة والنّور معاً، إنساناً لا يخاف من اللّيل حينما يرخي سدوله، بل يفهمه ويعرف كيف يستخرج منه حالة السلام والطّمأنينة، إنساناً يستطيع أن يفهم لماذا غادرتُ بأمر إلهيّ جبل الطّور وتركتُ فيه أجنحتي الثمانيّة ولبستُ جسدي الطّينيّ لأدخل إلى صقلّيّة وأقيم طيلة هذا العمر في أعماق جبل النّار العظيم، وها قد خرجتُ اليوم منه وأنا ثملة باللّهب، وملامحي ذهبيّة حمراء ورأسي مشتعل بالنّور، وأنظرُ بقلب ثابت إلى وجه المُخَلّص الّذي ملكَ نفسه ولم يسمح لأحد بأن يستعبده أو يستنزف كنوزه، ولا للأرض بأن تعتمه بل على العكس من ذلك تمامًا، لقد زادته

بهاء وإشراقاً، فأصبح يرى أفكار الجميع ولا أحد يستطيع قراءة أفكاره، بل أصبح يمتلكُ معاني كل الأسماء في ذاته، ولا أحد يستطيع معرفة أسمائه.

الفصل الثّامن

سِرُّكَ الّذي في قلبكَ

الخميس ٣١ كانون الأول ٢٠١٩، تاريخٌ لا أحد منّا يستطيعُ نسيانه، إنّه اليوم الّذي أعلنَتْ فيه وسائل الإعلام عن ظهور فيروس كورونا. والحقائق المُرّة لم تُفْصِحْ عنْ نفسها سوى بعد هذا اليوم بثلاث سنوات ونصف، لقد اكتشفنا أنّ هذا الفيروس ما كان سوى برنامج لترسيخ منظومة رقمنة العالم، وهو برنامج ماليّ ضرائبيّ محض، هدفه مراقبة أموال الحكومات الاقتصادية الكبرى والحفاظ عليها من المتهرّبين من أداء الضّرائب والجبايات. هذا كلّ ما في الأمر؛ وأنتَ في كلّ هذه المنظومة رقم مرتبط بنظام الهويّة الإلكترونيّة العامّة الّتي تُسَجَّلُ فيها كلّ المعلومات الخاصّة بكَ، لتَسهل مراقبة تحرّكاتكَ وأنشطتِكَ الماليّة والجبائيّة على وجه التّحديد. ولكي يتمّ تثبيت هذا النّظام تعرّض الإنسانُ لضغط كبير، أدّى بالعديد من الأفراد إلى الإصابة بأمراض نفسيّة رهيبة، ففي فترات الحجر الصحّي الّتي فُرضتْ بسبب انتشار الوباء، حدثَ ما لم يكن يخطر على

بال أحد: ارتفاع حالات العنف المنزليّ، انتشار ظاهرة زنا المحارم، تفشّي حالات الانتحار، وكذا الوفيات لدى فئات المُسنّين. نعم، لقد مات الكثير من النّاس، ودخل بعضهم إلى المصحّات النّفسية والعقليّة، وامتلأت السّجون بالبعض الآخر، والباقون اليوم خارج جدران هذه المؤسّسات لا يقلّون مرضاً ولا اهتزازاً ولا عنفاً عمّن هُم قابعين خلفها. واليوم وقد مرّت ثلاث سنوات ونصف على الجائحة، أنظُرُ لا بعينَيِ الأديبة بل بعيْنَيْنِ كأنّهُما لعميدٍ مُحَقِّقٍ، وأتذكّرُ طفولتي الّتي قضيتُها بينَ كلّ تلكَ الملفّات الجنائيّة التي كان يتابعُها والدي بحكم طبيعة عمله، وأتساءلُ من جديدٍ أيَّة جحيم هذه يا إلهي؟! لماذا هذا الإنسان غارقٌ في غسلينه وحِمَمِهِ ودمائه إلى هذه الدّرجة؟ كم من الدّماء تدفّقتْ، وكم من الجراح مازالت لم تلتئم بعد، وكم من الخيانات والأخطاء الفادحة التي تتكرّر باستمرار، وكم من الغدر والاستكبار والحروب والتّشريد والأهوال في كلّ جزء من الأرض؟ هل هذا هو خليفتُكَ على الأرض يا إلهي؟ قل لي، أم هل حدث في غفلةٍ منّا خطأ ما لا نعرف كيف نحدّده إلى اليوم؟ أعلمُ أنّ أسئلتي مجازيّة، لكنّي لا أنتظر منكَ يا إلهي أجوبة تكون مجازية أيضاً وإنّما أريدها صريحة ودقيقة، وبين عينيّ الآن ذكرى صورة من ملفّات والدي فيها امرأة متزوّجة تعرّضت

لحادثة سَيْرٍ شنيعة وهي على متن سيّارة أجرة (تاكسي)، بحيث التفّتْ العجلةُ القريبة من المقعد الأمامي على فستانها الطّويل فسحبته كاملاً، ودارت بشكل قويّ وسريع جدّاً أدّى إلى قطع رأسها وفصله عن جسدها. وبقراءة محضر الشّرطة تبيّن أنّها كانت ذاهبة للقاء عشيقها، وقبل أن تصلَ إلى بيتهِ حدث ما حدث، وأصبحت دماؤها سائلة فوق إسفلت الشّارع بذاك الشّكل الرّهيب والمروّع. فهل كانت حادثة قطع الرأس هذه علامة عقاب للزوجة الخائنة أمْ إنصافٍ لزوجها النّائم في عسل الغفلة، أم هما معاً، أو ربّما علامة لأشياء أعمق بكثير إذا ما قرأناها بالمنطق الإلهيّ والحكمة العرفانيّة لأهل الله؟ أتذكّرُ أيضاً رأس رجل آخر متدحرج في نهر جبل المدينة الشّاهق، قطعته زوجتُه ورمتْ أطراف جسده في الغابة ثمّ خرجتْ بين النّاس تبكي ببراءة حمَلٍ وديع اختفاءَ زوجها الحبيب إلى قلبها وغيابه عن عشِّ الزّوجيّة. وأتذكّرُ رؤوساً كثيرة أخرى قُطِعتْ لأسباب مختلفة، ذهبتُ طفلةً –بشأن بعضها– بصحبة والدي لرؤية تفاصيل الوقائع أثناء لحظات إعادة تمثيل مشاهد الجريمة فظلّت الكثير من الجزئيّات راسخة في ذاكرتي بحيثُ أنّني لليوم لا أثق بجنس امرأة، لأنّها معجونة بغسلين الخيانات، ليس فقط فيما يخصُّ العلاقات الزّوجيّة، ولكنّي أقصدُ العلاقات الإنسانيّة بشكل عامّ، سواء

كانتْ أمّاً، أو أختاً، أو ابنةً، أو صديقةً، أو زميلة عمل، إلى غير ذلك من صلات القرابة أو الصّداقة والزّمالة على اختلاف أنواعها وصفاتها. وعليه فإنّي قد يحدثُ أن أثق بالرّجل، ويستحيلُ أن أثق بالمرأة وخاصّة إذا كانت من النّوع الّذي يدّعي القداسة. صحيح أنّ هناك استثناءات، ولكنّها لا تعنيني الآن وأنا بصدد الحديث عن تطوّرات الرّوح ومعارجها وسعيها إلى الخلاص من الجحيم الأرضيّ. المرأةُ يا أخي كائنٌ عجيب، خُلِقَتْ للامتحانات الكبرى، يمتحنُ بها اللهُ الأولياء والأنبياء والعارفات التقيّات، واسألوا أهل البيت النبويّ فلهم من الحكايات فيما فعلته النّساء بهم وبالأئمّة الأطهار ما يشيبُ له الولدان، واسألوا رابعة البصريّة عمّا فعلنَه النّساءُ بها وبغيرها من السيّدات الصّالحات. واسألوني أنا أروِ لكم العجائب يا أهل الله. فلقد عوّدتنا المرأة أن تبيع نفسها بأرخص الأثمان، لا تحفظ ودّاً ولا عهداً، ولا تصبر على رجلٍ ينقلب حاله من ثراء إلى فقر، أو من صحّة إلى مرض، أو من جمال إلى دمامة، أو من شباب إلى شيخوخة، لسن كلّ النّساء هكذا، نعم أعيدُها وأكرّرها، هناك الاستثناءات، لكنّها تبقى قليلة جدّاً بالمقارنة مع عددهنّ الدّيموغرافيّ المهول في الأرض قاطبةً. فلماذا هي هكذا المرأة يا سادتي، بل لماذا الإنسان بهذا الشّكل من الانحراف والعصيان،

ولماذا هذا التعطّش للمال وسفكِ الدّماء، لماذا العنفُ، لماذا اللّصوصيّة، والاختلاسات والخيانات؟! ومن يعملُ في وزارتَيِ العدل والدّاخليّة، قاضياً كانَ أو محامياً أو وكيل نيابة أو عميد شرطة، سيعرفُ جيّداً معنى الأسئلة الّتي أطرح الآن، ولا تفزع من إجابتي يا صاحبي، فأنا أعرفُ مُسبقاً أنّها ستصدمكَ: الإمامُ المُنقذُ هو السّببُ في كلّ هذه الأهوال. فكلّما كان هبوط النّاسِ إلى الأعماق المُظلمة أقوى، كانت الدّفعةُ نحو الأعلى أكثر فعّالية بشكل يسمح بخروج المَلِكِ المخلّص من سردابه وتوهّجه المطلق. ولكي أبسّطَ لكَ الفكرة أكثر فأكثر، أدعوكَ لفتح القرآن الكريم وقراءة الآيات التي ترد فيها صور الجحيم والعذاب، ستلاحظُ أنّ هذه الآيات غالباً ما تسبقها أو تأتي بعدها آيات تتحدّث عن الجنّة والنّعيم. ومن له بصيرة خاصّة سوف يشعر وكأنّ الأمر فيها نوع من التجاور والتلازم والتوازي بين المكانين. وإذا نظرت إلى ما حولك في حياتك الدّنيا ستجد هذا التّجاور قائماً بين العديد من الأمور التي يجتمع فيها الشّيء ونقيضه. انظر مثلاً إلى أماكن العبادة بما فيها من مزارات وغيرها من المواسم الدّينيّة، ستجد ولا شكّ أن هناك بالجوار منها أماكن للفسق والفجور، وانظر إلى البعض من أهل الدّين بغضّ النّظر عن الديانة التي ينتمون إليها، سوف تتفاجأ أنه في كثير من

الأحيان تظهر عليهم وفيهم الموبقات العجيبة والمعاصي الغريبة، وستحتار في كيف تجتمع في الشّخص ذاته هذه المتناقضات. هذه أمور تحدث، وملفّات المحاكم ممتلئة بها، ولهذا فإنّي أدعوك إلى التفكّر في السبب الكامن وراء هذه الظّاهرة، وهذا التّزاوج بين الشيء ونقيضه في الطّبيعة البشريّة، وستجد أنّ الأمر له علاقة وثيقة بسعي البذرة السريّة إلى الخروج من الأعماق المظلمة، فيحدث بهذا ما يحدث للفراشة وهي تخرج من شرنقتها، وللحيّة وهي تولد من جسدها القديم، وللطّائر من بيضته، وللإنسان من جسده حينما يغادر بعد الوفاة عالمه منطلقاً إلى عوالم جديدة. وعليه فإنّ لكلّ مُنقذٍ مُخلّص داخل كلّ فرد تاريخ وماضٍ قضاه في المحنة والعذاب قبل أن يحين وقت الخروج الجوّانيّ. وانظر من حولك إلى النّاس وسترى العديد منهم يجرّون السّلاسل والأغلال غير المرئيّة بالعين المادّية، وهي كلّها سلاسل توحي بأنّ صاحبها يعاني وينتظر ذلك اليوم الّذي يصل فيه إلى خلاصه وحريّته. لا بدّ من الدّم والفرث ليخرجَ اللّبن خالصاً نقيّاً. أعتقد أنّك الآن قد فهمتني. وستفهمني أكثر فأكثر إذا عرفتَ أنّ كلّ هذه التّحوّلات العجيبة تقع في عالم التّكوين والخلق والإيجاد، وعيه فإنّ نطفة وليدكَ الجديد هي نطفة إلهيّة شريفة، لا تخرجُ من بيضتها إلّا تحت

مراقبة عين الحيّ القيوم، ولا يغرّنّكَ أن قشرة البيضة من طين آدميّ، فالعبرة بالرّوح الّتي تسكنها، وأعني بها صقيلُكَ الجوّانيّة، رحيق الفراديس والعوالم النّورانيّة في الأكوان كلّها!

تخيّل معي كيف أنّه يا صاحبي أصبح الكثير من النّاس–وخاصّة بعد تطوّرات عهد كورونا– يتحدّثُون عن قربِ ظهور الإمام المهديّ، ويكثرون من النبوءات حوله، وثمّة من قد يدّعي أنّه هو نفسه هذا الإمام. وسأكون صريحةً معكَ لأبعد مدىً وأقول: أنا شخصيّاً لا أؤمن بهؤلاء المعتوهين، ولا أؤمن بفكرة الظّهور المادّي للمهديّ إلّا في نهاية الزّمان. وهو عندي زمان جوّانيّ، يتحقّق داخل قلب الإنسان وليس خارجه، أيْ في واقعه الرّوحيّ وليس المادّي. كما أنّه غير مرتبط بحقبة تاريخيّة ما وإنّما هو مفتوح على الأبديّة. وقد آن الأوان لتعلمَ أنّ نظريّة صاحب الزّمان على قدر ما فيها من متعة وجمال وسحر روحيّ يصبو الجميع إلى الفوز به، فهي خطيرة جدّاً، إذا لم يتمّ التّعامل معها بالحصافة المطلوبة، لأنّه لا يوجد كائن في الطّبيعة أشدُّ جنوناً من الإنسان، لا سيما وأنّهُ يسيء دائماً فهم النّصوص الّتي تدور في الفلكِ الدّينيّ. وقد ظهر في التّاريخ من آمن بنظريّة الإمام بشكل أعمى لدرجة أنّه أراد أن يطبّقَ بالحرف ما يقرؤه في النّصوص من تطهير وإقامة للعدل والحقّ وتصفيّةٍ

لمَواطن الفساد فكان أن بدأت تتشكّلُ بعضُ الجماعات المشبوهة التي يؤمن أفرادها إيماناً شنيعاً بأنّهم مصلحون في الأرض، وهُم لا يعلمون أنّهم هُم المفسدون والمدمّرون لهيكل الله على البسيطة. لذا، لا بدّ من حدوث صحوة نوعيّة في هذه القضيّة بالذّات، وعلى النّاس أن يفهموا أنّ الإمام المُخلّص لا يحدّه زمان ولا مكان، ولا شريعة ولا مذهب، إنّه موجود داخل كلّ إنسان مهما اختلفت عقيدته وديانته وأصله الجغرافيّ. وعليه فإنّه حينما يُقال إنّ الإمامَ في السّرداب، فإنّ ذلك يعني أنّه في الكهف المظلم العميق، أيْ في ذاتكَ أنتَ أيّها الإنسان، وهذا الكهف هو جحيمُكَ الخاصّة بكَ، وإذا حدثَ ونزلتَ إليها فإنّكَ قبل الإمام ستجدُ والدته صقيل، مضرّجة بدمائها، لأنّها في محنة عظيمة، وبالقرب منها دابّة بقرنيْن عظيمين تتحدّث بلسان البشر. وهذه الدابّة هي قوّة الشرّ الرّهيب الّتي تسكن جوانيّاتكَ العجيبة، فحريٌّ بك أن تخشى الدّابّة ولكن لا تهرب منها، لأنّها إذا كان لها لسان ناطق بلغتكَ، فهذا يعني أنّه لا بد لكَ من أن تتحدّث إليها وتحاورها، لتطّلعَ على شرّكَ من خلالها. أنا لا أؤمن بالإنسان القدّيس بالمعنى الحرفيّ للكلمة، ولكنّي أؤمن بالإنسان الكامل بإنسانيّته. فوحده اعترافكَ بإنسانيتكَ عزيزي القارئ، لا بألوهيّتكَ يجعلُ منكَ كائنًا يعرفُ قيمة ومعنى الشرّ

الدّاخليّ، وإلّا فإنّ أميرتكَ صقيل لن تنجح في إنجاب مهديّكَ المُخلّص. أنتَ صقيل يا صاحبي ودابّتُكَ النّاطقة تعرف قيمة جمال الابن المُقدّس، وتتبهر به وتنتظر ظهوره بفارغ الصّبر من أجل أن تلتهمه، لذا عليكَ أن تهتدي إلى طريقة تفقأ بها عينها حتّى لا ترى من الجمال إلّا نصفه، واحذر يا صاحبي أن يقع عليكَ ظلُّ الدّابّة، فذاك أمر يُمْرِضُ مهديكَ الدّاخليّ، ويجعلُ منه وليداً عليلاً.

كلّ الأنهار تعرف تاريخ الشرّ البشريّ، اسأل الدّماء المتدفّقة في دجلة والفرات، واسأل عرائس النيل والرؤوس التي ألقيت على مرّ العصور والدّهور في نهر الغانج. ستُخبركَ المياه المتدفّقة بما تقشعرُّ لهُ الأبدان. ولا شيء في الكون كلّه يمكنه أن يبرّر يا عزيزي كلّ هذه المحن والمصائب! لا بدّ أن تقبل شَرّكَ إذن وتسعى إلى ولادة مَلِكِكَ الباهر الحسن والجمال. نعم، الجمال المُخيف. هل رأيتَه؟ هل رأيتَ العينين الذبّاحتيْن، والأهدابَ الكثيفة الطّويلة؟ لا يرى الجمال الرّهيب إلّا من بكى كثيراً، وصرخ وتأوّه بحرقة ومرارة إلى أن وصل عويله إلى السّماء. فقط حينما يصل صوتك الباكي إلى أُذُنَيِ العادل الرّحمن، يظهر إمامُ زمانكَ، ستراهُ ينظرُ إليكَ بعينين خائفتين مترقّبتيْن، لأنّه يشكُّ بقدرتكَ وقوّة إصرارِكَ على إخراجه من

السرداب وتحريره من الأسر والأغلال. لذا عليكَ إذا شعرتَ بخوفه منكَ أن تقف إلى جانبه، وتعطيه الأمان لأنّه يستحقّ ذلك، فهو قد قاتلَ طويلاً في العتمة الدّاخليّة من أجل أن تراه وتنتبه إلى وجوده، لقد انتصرَ على كلّ الأفاعي والعقارب والوحوش الكاسرة، والآن هو أمَامكَ، وأنت تنظر إليه ولا تعرفُ أنّه يريدكَ أنتَ، ولأنّكَ تشتاقُ إلى النّور، فستشعر بانجذاب عجيبٍ إليه، وهو أيضاً سيشعر بالانجذاب ذاته نحوك، وستُكَسِّران القيود معاً وتقع المعجزة ويحدثُ العناق والنّكاح، ستقوم صقيلُ روحكَ من دمائها وترمي مشيمتَها إلى الدّابّة لتلهيَها بها عن ابنها الّذي رأى النّور للتوّ.

ها قد ظهر الطّفل الباهر الجمال، وها أنتَ مسحور به إلى درجة الاختطاف، لكن عليكَ منذ اللّحظة أن تنتبه لمن حولكَ، فقنّاصو الجمال كُثر، والشّموس قليلة يا صاحبي. لا تقعد تُحَدّث النّاسَ عن حدوث المعجزة، وإلّا فإنّ الدّابة الّتي تسكن بداخل كلّ واحد فيهم ستخرجُ من كهفها لتذبحكَ من الوريد إلى الوريد وتشرب من دمكَ الطّاهر. وكن ذكيّاً واجعل من إمَامكَ مجرّدَ فكرة بسيطة جدّاً، تضعها بين ثنايا القلب، وحاول ألّا تكون شيئاً يقعُ ويتجسّدُ في العالم المادّي، حتّى لا تُصبحَ صيدًا سهلاً لأصحاب النيّات السيّئة، أولئكَ الّذين يدّعون

العرفان والقداسة والمهدويّة، وهُم لا يفهمون من المهديّ ولا عنه شيئاً، وإذا قرأوا عنه نصّاً أساءوا فهمه وتأويله، وإذا كانوا أصحابَ مذهب ما أو إيديولوجيّة مهدويّة ما حاولوا جرّك واستدراجكَ إليهم، وأنتَ النقيّ البريء الّذي لا ناقة لكَ ولا جمل في أحابيل الفكر السياسيّ ولا المذهبيّ ولا الطّائفيّ، تجدُ نفسكَ تسقطُ من جديد، ويموت مخلّصكَ، وتمرضُ صقيلُكَ ومَلِكَتُكَ المقدّسة، فتقعد ملومًا محسوراً على ما ضاع منكَ بسبب طيبتكَ وسذاجتكَ. لذا، كن غيوراً على إمامكَ، وخذه معكَ إلى حيث النّاس يرونَ ولا يفهمون، واحرص على ألّا تُظهره لأحد، لأنّك إذا فعلتَ ذلك، فإنّ كلّ من حولك سيصاب بالهذيان والجنون، لذا اصمت واكتم واخفِ الجمال، ودع الناس غارقين في هلوساتهم.

الفصل التّاسع

سيّدةُ الهيكل الملكيّ

حينما يولدُ مهديُّكَ وفتاكَ الزكيُّ، لا تنظر إلى نفسكَ في مرآة الرّوح، فلربّما يُصيبُكَ الغرور وتُفْسِدُ بذلكَ كلّ شيءٍ، وتُصبحُ كأولئكَ الّذين يعتقدون أنفسهم آلهةً على الأرض. تذكّر يا عزيزي أنّ الله واحدٌ أحدٌ صمد، ولا يحبُّ العبد الّذي يرغبُ في أن يُصبحَ إلهاً. فمن تكون أنتَ لتدّعي ذلك فقط لأنّ ملكتكَ صقيل، سيّدة مصر الأولى والأخيرة أنجَبَتْ لكَ صاحبَ زمانكَ الّذي انتظرته طويلاً؟! تذكّر أنّ الأرض ما أفسدها سوى من يدّعي الألوهيّة والقداسة، لأنّه يبدأ في التّفكير كحاكم للأرض، ويريد الإصلاح فيحدثُ أن تقع على يديه وبسببه الحروب والمجازر. كن عاقلاً يا بارككَ الله، واعلم أنّه وإن وصلتَ إلى الخلاص الرّوحيّ، فإنّكَ تبقى إنساناً، يسكنُ في بيت من طين، إذا دخلتْ تحتَ جلدكَ شوكة صغيرة أوجعتكَ وطيّرتِ النّومَ من عينيْكَ. إنساناً خُلقَ من ضعفٍ يمرضُ ويموتُ ويتحلّلُ جسده،

ولا يبقى منه إلّا عمله الصّالح والذّكرى الطيّبة. وانسَ كلّ تلكَ الفذلكيّات والخزعبلات الّتي يردّدُها نوكى الشّيوخ عن الأولياء والعرفاء وقدراتهم وكراماتهم العجيبة، فإنّهم لا يعرفون خطورة ما يتفوّهون به، ولا ما كتبوه في دفاترهم الصّفراء، حتّى أصبح الكلُّ يحلمُ بأن يصيرَ قدّيساً أو عارفاً أو نبيّاً تُطوى له الأرضُ، ويمشي فوق الماء ويطيرُ في الهواء، ويُكثِرُ السّمكَ والخُبزَ، ويشفي المرضى، وأصبح كلّ من هبّ ودبّ يَرقِي ويصرع ويحكم الجنّ ويدّعي أنّه سليمان زمانه. يا أمّةً ضحكتْ من جهلها الأمم، من يأتينا برجل واحدٍ يشرحُ للنّاس أنّ كلّ هذه المكتسبات الكراماتيّة إنّما هي مكتسبات روحيّة تحدثُ في عالم الرّوح وليس في الواقع المادّي، وإذا حدث أن فاز بها رجل عاقل فإنّه لا يتباهى بها، ويكتُمُها ولا يستخدمُها إلّا إذا دعتِ الضّرورة القصوى لذلكَ. ومن يأتينا بمُفَكِّرٍ نيّرٍ مهتدٍ بنور الرّحمن يوضّحُ للنّاس أنّ معظمهم قد تشيطَنَ بسبب الأمراض النّفسيّة والرّوحيّة الّتي نتَجَتْ عمّا حدث من تفكّك للمنظومة الإنسانيّة بدعوى التقدّم التكنولوجيّ والازدهار الرّقميّ الرّهيب الّذي ما تركَ ميداناً إلّا دخله وغيّره من الأعماق. فمن يا أهلَ الله يحمي الإنسانَ من بطش وجهلِ الإنسان، ومن يدلُّ النّاس على سيّدة مصر الكبرى، صقيل أو إيزيس، أو مليكة أو مريم أو نرجس، سمّها كما شئتَ،

فمصر واحدة وهي أرضُ بدنكَ، وسيّدتها الكبرى واحدة، ومهديُّكَ الّذي في أحشائها واحد، وأنا حينما كنتُ أحدّثُكَ عن الحضرة الفرعونيّة فإني كنتُ أقصدُ بها الحضرة الهيروغليفيّة، أيْ حضرة الكتابة الإلهيّة، وما الفرعون سوى الأستاذ الإلهيّ في مدرسة الأسرار، هيروغليفيّة المعنى والحضور أنا، وكلماتي من نار ونور، أمّا حينما كنتُ أحدّثُكَ عن الإتنا؛ البركان الصقليّ، فإنّه كانت تعنيني منه رمزيّتهُ للجحيم الأرضيّ، أو كهف النّفس الّذي لا بدّ لكلّ سالكٍ أن يدخل إليه ليعرف أن الطّريق واحد، وهو طريقه الخاصُّ به، وأنّ الخلاص واحد وهو خلاصه الخاصّ به لا بغيره، فلا تدع يا صاحبي أحداً يجذبُكَ نحوه، لأنّ الدربَ دربُكَ أنتَ وليس دربه، وكلٌّ أدرى بدربه، وإذا تبعت الآخرين تهت عن ذاتكَ وعن طريقك السّحريّة الّتي تنمو فيها الأشجار الفردوسيّة وكذلكَ النّيرانُ السّقَريّة.

حينما تلدُ لكَ مَلكتُكَ صقيل الرّوح مَهديّكَ، فاحمله بين يديْكَ، وارضع الحليب اللّدنيّ من ثديها المثقل بالخيرات والبركات، واخف الوليد عن الأنظار، ولا تعد به إلى أعماق البركان، فإنّه في كلّ الأحوال مازال فتيّاً ولا قدرة له على خوض الأهوال، فلا تزجَّ به في بحار المغامرات العرفانيّة الخطيرة، ولا ترتكب الأخطاء التي يقع في فخاخها العديد من أهل الطّريق، إذ أنّهم

ما إن يولد الفتى المُشرق يعتقدون في أنفسهم القوّة والكمال فيبدأون حياة النّزول إلى الأعماق من أجل محاربة الشّياطين والمردة والعفاريت، ومنهم من يختار حياة الصّرْع والحرق، فتضربه لعناتُ الأسحار السُّلاليّة التي تصل إلى أحفاد أحفاده، وتنتكسُ حياته، ويمرضُ أهل بيته، ويتشتّتُ عشّه المنزليُّ، وتنقلب حياته إلى جحيم خالصة، وهو لا يعلمُ أنّه قد تهوّر وتسرّع كثيراً حينما سلكَ طريقاً يحارُ فيها كبار العرفاء وأكثرهم تجربة، فما بالك بإنسان حديث الولادة والإشراق. لا تُغامر يا باركك الله، فأنت لا تعلم ما في تلك العوالم الظّلمانيّة من أهوال، ولا تُنَصّبْ نفسكَ طبيباً روحانيّاً قبل أن تكون مستعدّاً بشكل كاملٍ لهذا الأمر، واعلم أنّ معظم النّاس هم مرضى بسبب ما في الحياة من ضنكٍ وقهر وظلم وفساد وفقر، أمّا مرضُ الرّوح الحقيقيّ فهو خطير لأنّه يكون بسبب تلبّسات العوالم السّفليّة التي لا يستطيع النّزول إليها وحكمها من الدّاخل بشكل صارم ورصين إلّا صاحب نور حارق، وهذا النّوع من أولياء الله نادر. كُنْ صبوراً إذن، وانتظرْ فرجَ الله بقلب راسخٍ وواثق ومفعم باليقين والإيمان الحقّ. وعش حياتَكَ بخيرها وشرّها، ودعكَ من هؤلاء من قبيل أصحاب كتب التنميّة الذّاتيّة والطّاقيّة وما إليها، فإنّهم لا يعلمون شيئًا عن دنيا الله، وأهل الله، ويردّدون كلام البوذيين

وأحلام الهوليوديّين وهم نائمون في العسل، ولا يعرفون عن أهوال الطّريق الحقّة شيئاً. وأغلبهم أصحابُ قلوبٍ منافقة، فكرتُهم عن الله ملتصقة بطقوس العبادات لا أقل ولا أكثر، وفلسفتهم عن الحبّ حبيسة ما يحدث في مخادع النّوم وفوق الأسرّة، يتملّقون بعضهم بعضاً جهراً، وينحرون رؤوس بعضهم بعضاً ويشربون ويأكلون دماء ولحوم بعضهم بعضاً في الخفاء، فأيُّ إنسان كامل هذا الّذي يبشّرون به، وأيّة قوّة روحيّة هذه الّتي يتحدّثون عنها، وهُم في بحار التّيه غارقون، فسبحانك ربّي ما أعظم شأنكَ أنت العليم الخبير بما تخفيه النّفوس والقلوب، وبكيْد ومكر الجاهلين الفاسقين. دعني أصمت يا صاحبي، ولكن قبل ذلكَ غنِّ معي وقُل:

لأنّني امرأة النّيل

تعلّمتُ كيف أصنعُ إكسير الحياة بيديَّ

وأشربُ منهُ نُقطةً كلّ صباح

لكن قبل هذا

كان لا بدّ لي من الدّموع المَالحة

والدّموع العذبة أيضاً

وكان لا بدّ لي أنْ أسبَحَ في النّهر ضدّ التيّار

وأنْ أبكِيَ عند الضّفّة الخضراء في صمت

وأن أهتفَ بِاسْمِكَ عالياً

علّ الصّقور الملكيّة تهتدي بهِ
في هجرَتِهَا نحو نجم الشّمال.
لأنّني امرأة النّيل
كان لا بدّ لي أن أتعلّم السّنسكريتيّة أوّلاً
وأدهنَ جبهتي بزيتِ شجرة الصّنوبر،
لمْ أحْسِنِ الاختيارَ جيّداً
أعرفُ ذلكَ
إذ كان لا بدّ لي أن أتعلّم الآراميّة قبل كلّ شيء
وإن تجلّى اللّوحُ بلغة عربيّة يكتُبُها ملوكٌ فراعنة:
صمغُ اللّوح عربيٌّ
مازال راسخاً في ذاكرتي
رائحة الحبر عربيّةٌ
مازالت ساكنةً في أنفي
والحرفُ بين يديّ مازال عربيّاً
وإن تجلّيتُ لنفسي
بتاجٍ فرعونيّ
وقلادة هيروغليفية!

وهاقد وصلتُ بكَ عزيزي القارئ إلى نهاية الرّحلة المُقدّسة، وها نحن معاً ننظرُ إلى وليدنا الباهر الحسن والجمال والكمال، وقد كبرنا ونضجنا أنتَ وأنا بما فيه الكفاية بحيث أصبحنا نعلمُ جيّداً

أنّه بعد أن يتحقّق تكوين الوليد وخروجه من سراديب الغيبة لا بدّ أن نبتعد به عن الأنظار، ونسهرَ على تربيته حتّى ينشأ سليماً معافىً، قادراً على خوض تجارب العصر الجديد، بقلب كامل عفيف لا يطمع فيما يشغل عقول النّاس من حبٍّ للجاه والسّلطة والمال، والسّيطرة على كنوز الأرض من مغاربها إلى مشارقها. نعم، عفيف هو وليدنا، مستغنٍ بخالقه عمّن سواه، عينه على الفراديس البكر، يأخذنا إليها ونعيش معه فيها أجمل اللّحظات، ونكتشف برفقته عوالم لم نكن لنعرفها بدونه. نورنا هو هذا الوليد الّذي به نرى وجه الحبيب الأزليّ، وسبيلنا الوحيدة إلى خالقنا العظيم، هناك حيث جبل النّور الّذي تركض فيه الأيائل والظّباء وتحلّق بعليائه النّسور الملكيّة ويمائم العشق البهيّة. هناك حيث أنتَ وأنا، نعيشُ إنساناً لا إلهاً، إنساناً قد يكون عنده بعض من علم الكتاب!

الفصل العاشر

مقالات الدكتور هيثم كاظم المحمود

(١)

الدكتورة أسماء غريب
موفَدة السفارة الإلهية

د. هيثم كاظم المحمود

تعيش الدكتورة الرائدة **أسماء غريب؛** عالماً عرفانياً خاصاً، تتطلّعُ فيه إلى إقامة الدولة الإلهية العظمى التي تملأُ الأرضَ قسطاً وعدلا بعد أن مُلِئَتْ ظلماً وجورا.فبعدَ موسوعتها المهدوية (دزاكرا إمامكَ المنتظر كما لم يخبرك عنه أحد)، تأتي اليوم لتمتطي صهوة جوادها الأشم لتنيرَ عالمَ الإمامة بخمسِ محاورَ تستقصي بها إلى نقطة الوحدة بينَ قوسَي الأحدية والواحدية.

نعم، إنها **موفدة السفارة الإلهية،** وصاحبة السّبق إلى تقديم إمامها بهذه الحلقات الجمالية ذات الدلالات العرفانية التي تصل العبد بمولاه بأسلوب حداثي لم يسبق وأن تناوله أحد.

إذن هو استكمالٌ لِما قُدّمَ من عملٍ أدبي عرفاني هادف، بطريقة روائية ذات دلالات عالية المضامين، يمكنُ أن تكون محل عناية ودراسة المفكرين والباحثين كأسلوب سردي تناولي جاد، أو كحركة ديناميكية تجديدية في الأدب العربي المعاصر.

إنّ البُعد الدلالي في شخصية الدكتورة أسماء يتميّز بالرصانة

والموثوقية ، إذ لا يخفى فانّ الاعتقاد – وحده – لا يكفي أن يكون سنداً لمقبولية البُعد الدلالي. لذلك نجد بانّ **النص الأسمائي** يتحرك تحرّكاً إيجابياً بسياقات فوق العادة استناداً لسنده الرصين الذي يمنحهُ الدعامات اللائقة لذائقة القارئ، ومن ثمّ الأخذ به باعتباره ليسَ عملاً خاضعاً لضوابط العمل الروائي فحسب، بل له تركيبته البنائية الخاصة، وهو محفوفٌ بالتوفيقات والتسديدات الإلهية ما يُميّزهُ عن غيره من الأعمال الأدبية باعتباره تناول لقضية عقائدية عالمية، حتمية الحدوث، وسردها بأسلوب حداثي، مُبتَكَر، غير نمطي، يوظّف السرد الروائي للوصول إلى الحقيقة .

مَهَمّة الفرن الفِرعوني

في مطلع محورها الأول **(مهمة جديدة)** تتساءل الدكتورة أسماء:

هل غابَ المهديُّ حقّاً ؟

أينَ هو؟

لماذا هو مُنتَظَر إلى اليوم؟

مجموعةٌ مِنَ الاستفهامات المجازية أو البلاغية تضعها أمامنا. فلو تدبّرنا الغرض البلاغي من أسلوب الاستفهام في الجمل الواردة أعلاه، بعد أن حدّدنا نوع الاستفهام الذي أرادت، لوجدنا

أنها كانت تروم التشويق والتعظيم لا التعجّبَ أو الإنكار.

إنها- وكعادتها- تُدخِلُ القارئَ في منعطفٍ ضيّق من حلقات الشّك والتساؤل، تتصنّع الاستفادة والاسترشاد، شأنها شأنُ الطالبَ أو التلميذ، حتى إذا أجابَ المسكين ببراءة وسذاجة أنقضّت عليه لتصِلَ به في النهاية إلى حقائِقَ تلزمهُ أقواله. فالمُتَرَقّب لطلعتهِ البهيّة، واقفٌ على أجنحة الانتظار؛ وقد طالَ وقوفهُ وهو لا يدري أينَ استقرَّ بصاحبهِ النَّوى، وفي كلّ مرة يعودُ ولا شيء يرى ! تقول الدكتورة أسماء:

<لكنه سرعانَ ما يعود في كلّ مرحلة بجبّةٍ خاوية. لا جوابَ فيها ولا شفاء ولا ضوء تنبلج منه أول بشائر الحرية والنجاة>.

إنه الخَواء الذي يتملّك المُنتَظِر، فيُفسِدُ عليه أُنس الانتظار ، ولا يجعله يتذوّق حلاوته، فيراهُ بعيداً ، وهو قريب !

وبحكم الظهور البيّن للوجود المقدّس عندها، والذي تعيشه واقعاً حضورياً؛ فأنها لا تستسيغ تقبّل فكرة الغياب تلك. أنها تعيش ما أسمتهُ : < **الحكومة الإيمانية العميقة التي نَسجت لنا كل هذه الحكايات عن هذا الإمام المبجّل ..**>

وتحلّق بفكرها النيّر وعطاءها الثّر في ملكوت الله لتصبح عارفة البلاط الأولى، بعد أن تذوقَ مرارة البلاء والتمحيص،

تقول :

<وفعلاً أدخلني المستشار إلى فرنٍ كبير بألسنة لهبٍ متأجّجة، لكنها كانت لا تحرق فيَّ، ولا منيّ شيئاً، وكنتُ كلما أبديت له رفضي لأمر خطوبة الملك لي، قالَ لي: "إنه أمرٌ لا خيار لكِ فيه، ولا أستطيع أن أفعل لكِ إزاءه شيئا، هكذا تجري الأمور منذ الأزل" وبقيت في الفرن إلى ما شاء الله> .

وتقول في المحور الثاني **(الفتاة الازلية) : < فلأنّي منذ رؤيا فرن الفرعون فقِهتُ إلى أنّ أولى مقامات اليقظة الرّوحيّة بل أقواها وأهمّها على الإطلاق هو مقام الفتى إبراهيم ، وكلّ مَن أتى بعده من الفتية وعليه فإذا كان الفرعونُ قد طلب يد النّفس وأمر مستشار هُ بإدخالها إلى الفرن لتصبح جاهزة لتلقي الأسرار الكبرى، فإنّ هذا يعني أنَّ الفرنَ هو أرضُ الله العظمى ومختبره الكيميائيّ الكبير>.**

ولو تدبّرنا – للوهلة الأولى – كلمة **(يقظة)** في النص السابق لوجدنا أنَّ الدخول إلى الفرن الفرعوني كانَ إيذاناً بالتخلّص من موارد الغفلة، وهي غاية الغايات التي يكون من خلالها الإنسان مُعَدّاً لتلقي الأسرار الكُبرى الصادرة من مقام الأحدية السامي مروراً ببقية الأنبياء والأولياء والأوصياء مِمّن اجتبى من عباده الصالحين؛ تلك الأرواح التي < **كَسّرت أصنام الهوى وحازت**

علوم القدرة في الحضرة الإلـهية> .

وربما لم يكن المراد من – اليقظة – التي أرادت الدكتورة أسماء؛ اليقظة في مقابل الغفلة، إنّما كانت تعني نقطة الشروع الحقيقية للظفر بالحقيقة الأبدية .إذ لا يُتَصَوَّر أن تتملّك الغفلة – بحال – تلك الأرواح اللطيفة، والأبدان العفيفة. وفي هذا الحال هي تريد إنّ الإعْداد يكونُ قد جاء دفعة واحدة، وهذا ما أسمته بالـ **(يقظة)**. أو ربما كانت تريد كلا الاتجاهين؛ إذ انّ المرجّح أن يكون الاتجاه الثاني من مختصات النبوة والإمامة، والأول يختص بما هم دونَ ذلك .

ويبدو من خلالِ هذا النص، انّ الدكتورة أسماء تريد أن توصلَ رسالة مفادها إنّ مرحلة الإعداد الروحي وإدراك الكمالات ومعرفتها بغية الوصول إلى الكمال المطلق لا يحصل إلّا بتمام المعرفة. والمعرفة بالقدر الأدنى لا تحقّق ذلك المطلب بحال، فشرف العلم بشرف المعلوم. لذا يقتضي أن تكون المعرفة مِنَ الشرفية والرتبة ما توازي أشرف موضوع وأشرف حقيقة بعد مقام الأحدية السامي، ومقام النور الساطع من حضرة النبيّ الخاتَم (صلى الله عليه وآله).

نعم، هذه – باختصار– هي حقيقة **(الفرن الأسمائي)**، فهو المصداق العملي لقول الإمام الكاظِم (الإمام السابع من أئمة

أهل البيت عليهم السلام) : <**والله لتغربلنّ ثمّ لتغربلنّ ويسقط من الغربال خلقٌ كثير، ولا يبقى منكم إلّا الأندر**>. وقول أبنه الإمام الرِضا (الإمام الثامن من أئمة أهل البيت عليهم السلام) : <**والله ما يكون ما تمدّونَ أعينكم إليه حتى تُمَحَّصوا وتُمَيّزوا وحتى لا يبقى منكم إلّا الأندر**>.

إنّها لا تتحَدّثُ عن نفسها – بحال – بل تريد أن تتجسّد حقيقة الإنسان – بما هو إنسان – بهذا [**الأندر**] ليكونَ مُعَدّاً لمرحلة الظهور المقدّس، مُهَيَّئاً في أيّ لحظة لسماع النداء: ﴿ أتى أمرُ اللهِ فلا تستعجلوه ﴾

نعم، لقد وردَ في كتاب الغيبة لمحمد بن إبراهيم النعماني، ج١، ص ٢١٧ عن الصادق (الإمام السادس من أئمة أهل البيت عليهم السلام) انه قال: < **لو قد قام القائم عليه السلام لأنكره الناس، لأنه يرجع إليهم شاباً موفقاً، لا يثبت عليه إلّا مؤمن قد أخذَ الله ميثاقه في الذر الأول** >

على أنّ ذلك لا يتحقّق ما لم يمر الإنسان بالتجلّياتِ بأبهى صورها، فيكون مصداقاً حقيقياً للـ (**الأندر**).

وكما تجنحُ الشمسُ إلى مغيبها، تجنحُ هي إلى ذلك **التلازم الموضوعي** بينَ الإعداد الروحي [**الأندر**] وبينَ ما يليق بالطلعة العالمية المرتقبة وما يحيطُ بها من عناية إلهية، وما

أُعِدَّ لها من إمكانيات تتناسب وما يشهَده العالم من تطور تكنولوجي هائل !

وللكتاب الجديد هذا مَهَمّةٌ عظيمة؛ هي رسالة ومفتاح، وهي ملخّص الرؤى التي حكتها في هذا المحور، تقول: < .. **لكنني سأقول لكَ باختصار شديد جداً: إنّ هذه الرؤيا هي رسالة ومفتاح، وهي لا تعنيني بشكل مباشر، وحضوري فيها ما هو سوى رمزٍ عرفانيٍّ كبير، يدفعني للتساؤل لا عن سبب الرسالة، وإنّما عن فحواها، ولا عن علاقتي بالرؤى التي تلتها وإنّما برحلة البحث عن المفتاح الذي سيساعدنا معاً، كاتبةً ومتلقّياً على فكَ شيفراتها، وقراءة رموزها بلغةٍ عصرية، سليمة ولعلّ هذه هي حقّاً مَهَمّة هذا الكتاب الجديد** >

(الفن التشكيلي)
نافذة للبوح

وبعد عشرينَ عاماً من وقوع **رؤية الفرن الفرعوني** < **أرضُ الله العظمى ومختبره الكيميائيّ الكبير**>، ولمّا كُفّنت تلك الفترة العجيبة، كانت الدكتورة أسماء قد توّجها الله بتاج العافية، فخَرجَت سالمة لم تُصَب بأذى، ولم تزدد إلّا هُدىً على هُدى.

حاوَلَتْ أن تَتّجهَ نحو الرمز الشعري – رغمَ رحابتهِ وشساعتهِ –

لتعبّرَ به عن عالَمٍ مليء بالسُبُحات كانت قد عاينته، لكنّ اتّجاهاً ضيّقاً– كهذا– لم يكن كافياً ليعبّرَ عن عَظَمة ذلك النور الذي ملأَ أركانَ ذلك المكان، تقول: < **لم يستطع احتواء هذا الثقل كاملاً** >

ولمّا لم تجد في الرمز الشعري، ولا في تركيبته الداخلية ما يحقق مرادها في فك طلاسمَ عوالِمَ البصيرة، راحت تبحث عن طريقٍ آخرَ للخلاص من هذا المأزق ! فوجدت في قصيدة الفرعون الصغير ؛ النقطة التي أفاضت الكأس. فراحت تشكرهُ لأنه أطلعها على الفراديس البِكر والحور العِين، لكنها ورغم <تاج الحكمة> الذي كانَ يُظهرهُ لها، ورغمَ لِباسهِ المَلَكي البهيج، أدركت بأنّ ثمّة مَلِكٌ آخر لهُ حاكمية عليها وعليه، فراحت تدعوه إلى <أرض الكبريت الأحمر والدم الأزرق>، لتحرّره من قيود الأسر الذي كان يعيش. تقول:

< تعال لأحرّركَ من أسْرِكَ الّذي طال أكثر ممّا ينبغي >.

وإذا كانَ الصمت هو أكثر اللحظات إثارة للانفعال، كان يمكن أن يكونَ نافذة للبوح، فهو فنٌ عظيم من فنون الكلام. يقول شمس التبريزي:

" **عندما تلج دائرة الحُب، تكون اللغة التي نعرفها قد عفا عليها الزمن، فالشيء الذي لا يمكن التعبير عنه بالكلمات، لا**

يمكنُ إدراكه إلّا بالصمت" . لكنّها آثرت أن تكونَ صامتة.

ولمّا لم تكن رغبتها ببوح السر الذي تلقته في ذاك الفرن، ليستوعبَ ذاكرة أسيرٍ تدعوه للخلاصِ من أسره؛ ولمّا أدركت أنَّ اللغة التي كان إلهها يخاطبها بها؛ لغة خاصة جداً، ولأنّ حجم السر الذي تريدُ البوحَ به أكبرَ من أن تستوعبه القصيدة الشعرية، انصرفت للفن التشكيلي، فتركت لِيَدها وقلبها حريّة الغوص والتحرك في محيطات اللون والرمز، للإفصاح عن تلك الأسرار الخفية التي تريد أن تحرّرها من أسر الخفاء إلى دائرة الضوء.

ولم تكن الدكتورة أسماء لتريد من تلك الرسومات الدلالية، نفسَها، بل كانت ترسمُ الطريق الذي يلخّصُ الرسالة ومُرادها، إذ أنّ تلك الرسومات كانت حاوية على كل العناصر الكيميائية التي تبعث إشارات توعوية تورث الوعي الخلّاق بكل ما تحمل من دلالات عرفانية كبرى، تقول الدكتورة أسماء:

< **مخطئ مَنْ سيعتقد، أنّني أرسمُ نفسي، ولكنّي ألتمسُ لهُ العذر، في الوقت ذاته، فأنا أيضاً كانت تمرُّ بي لحظات، اعتقدتُ فيها أنّني أرسمُ أو أكتبُ نفسي، ولكنّي اكتشفتُ فيما بعدُ أنّني أرسمُ المحرابَ لا العابدَ، وأكتبُ وأصفُ الرّحلةَ لا المُسافر** >.

وفي البحث عن التشكيل النحتي لتلك الدلالات التي

أشارت إليها الدكتورة أسماء عبرَ هذا الخليط المتجانس من الرسومات التشكيلية ذات الطابع المفاهيمي، القصدي، والتي أسهمت في إبراز الوصف التحليلي لقضيتها، ولعله هذا هو المنهج المُتَّبَع في الدراسات الفنية والجمالية. فقد اعتمدت تنوّع الخامات والأساليب الحداثوية، ونحتها بشكل قوالب تراثية مُعبّرة عن حُقبٍ زمنية ذات دلالات كونية، غير مكترثة بالنظام الكرونولوجي للأحداث التاريخية الذي يعتمد الميقاتية وتسلسل الحوادث.وهذا ما يحرر نصّها من قيود الرجوع إلى التسلسلات الطبوغرافية.

فالقضية التي تريد، غير محكومة بعلم قياس الزمن، ولا بقراءاته التي تجعل الأحداث رهينة مسار خطي، فهي لا تجعل من التسلسل الزمني أبجدية في وعي الأمور، ولا تؤمن بهذا الشكل من وعي التاريخ أو الزمان.

فبالتجاوز الخطي والشكلي لما وراء الكرونولوجيا، تحدد الدكتورة أسماء المسارات اللازمة لفهم القضية المهدوية. وهي بهذا الفهم الواعي، غير المقيّد بحدود الكرونولوجية الكلاسيكية، تكون قد جاءت بالمصداق الحقيقي لمفهوم الانتظار الإيجابي للناحية المقدّسة، وتكون قد ربطت تلك القضية بمفاهيم قيمية لا تحاكي غير الوعي الخلّاق، النافذ إلى أعماق بصيرة الإنسان التي أراد

الله تعالى أن تُهَيأ لتكون شاهداً عليه، قال تعالى:

﴿ **بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ** ﴾

نعم، وهي بهذا التلازم تكون قد رَبطت القضية المهدوية بالوعي الخلّاق ربطاً لا يمكن أن تَنفكَّ عنه بحال.

ومن ثمار ذلك التلازم؛ الشعور بحضور تلك الروح اللطيفة، شعوراً حقيقياً يترتّبُ عليه مراقبة الإنسان لحركاته العشوائية التي تُفسدُ عليه حياته، وتكون مدعاة لسلب التوفيق والتسديد اللازمين لتهيئة أسباب شعوره بالسعادة الحقيقية.

وفي الوقت الذي تؤمن فيه بأنّ الانجاز البشري هو الذي يعطي للزمن قيمته الحقيقية، وليسَ العكس، وذلك وفق الأخذ بالنقاط الايجابية التي تكمنُ فيه، والتي تحدّد إنسانية الإنسان بما هو إنسان. تدعو إلى إنتاج وعي جديد يصوغ عقد من التآلف بينَ الإنسان ونفسه، يخرجها به من أسر القراءات الخاطئة لمفاهيم التربية والقِيَم، إلى إنتاج ذاكرة جمعية إيجابية، كفيلة بإزالة عناصر الإحباط والانكسار والهزيمة.

< تنوّع أدوار ووحدة هدف >

ولمّا كانَ لابدّ من الحفاظ على سرية تلك النطفة المباركة، كانت العناية الإلهية قد أدّخرت نماذجَ مُؤيَّدة بنور الله وحكمته،

ومُسَدّدة بِمَنِّه وتوفيقه .

فعن خصوصية ذلك الادّخار ومنهجيةِ ذلكَ الإعداد الإلهي، تروي الدكتورة أسماء حكاية تلك الشجرة المثمرة التي أنبتت في أرضِ مصر، لوحةً ناطقة بلغة العرفان، تختصر الحكايةَ.

ثنائية **القلب الكوني والنفس الكلية** : إبراهيم الخليل، نبي الله؛ **القلب الكوني.** وزوجته هاجر؛ **النفس الكلية.** وكانَ القرن التاسع عشر ق.م، زاخراً بهذا الفيض الإلهي المتدفّق منهما .

القلب الكوني؛ الرائد الأول للتوحيدِ، ثاني أنبياء أولي العزم، إماماً جامعاً لِخِصال الخير، قال تعالى: ﴿***إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً***﴾، المَثَل الأعلى للبشرية، والناطق الحي باسمها، وهو الإنسان الكامل، الذي يطمح أيّ إنسانٍ يسعى روحياً أن يصلَ إلى مرتبته.

والنفس الكلية؛ هاجَر، وريثةَ حوّاء التي حوّلها إلى سادنة محراب العشق والمحبّة الكونيَيْن، وذلكَ حتّى يتمكَّنَ إبراهيم من إيداع بذرة أو نطفة الحياة الجديدة فيها. وهيَ نفس الإنسان الكامل التي تتكشّف فيها حقائق الوجود المطلق.على حدِّ قول الدكتورة أسماء.

وكما أنّ النفس الناطقة هي قلب الإنسان، فإنّ النفس الكلية هي قلب العالم الكبير. تقول عنها الدكتورة أسماء:

<هي المسؤولة الأولى عن يقظة إبراهيم؛ القلب الكونيّ، وهي التي دلَّتهُ بداية على الشّمس ثم من بعدها القمر، وحينما أفلا معاً، عادتْ به إلى الإظلام الكبير، الّذي لن تجليه سوى البذرة السرّيّة الّتي أشرتُ إليها قبل قليل> ؛ وتريد بها الإمام المهدي؛ المُدَّخَر (عليه السلام)، والذي سيكونُ مُجلّياً إلى ذلكَ الإظلام الكبير.

وتقول عنها كذلك: **< .. والسيّدة الملكة القائمة على شؤون مدينة الجسد في الأعلى كما في الأسفل ..>**

والبذرة السرية تلك، هي السر الذي تعدّدَ ظهوره بأسماء لدنيّة خاصة، تعدّدت بها الأدوار بأزمنة متعدّدة كانت المصلحة الإلهية تقتضي لكلّ منها أن يكون لهُ حضوراً عينيّا في زمن معيّن. لكن هدفها كلّها كان هدفاً واحداً... إذن نحن أمامَ تعدّد ادوار ووحدة هدف، إذ اقتضت الحكمة الإلهية أن يختصّ الله تعالى مجموعة مِنَ عباده المُخلَصين بتسلّم مهام حمل الرسالة ونقلها عبرَ أزمنة متعدّدة الظروف .

تقول الدكتورة أسماء: **< إنّها السرّ الّذي ظهر بأسماء لدنيّة خاصّة هيَ إسماعيل، وموسى ويحيى وعيسى وعبد الله، وعَليّ والحسين، ثمّ صاحب الزّمان(عليهم السلام). أيْ كلّ أولئكَ الّذين صدر في حقّهم الحكم الإلهيّ بوجوب النّحر والذّبح >**

إنها تختصرُ الأدوارَ كلها بتلك الوقائع الدامية، والأحداث المؤسفة التي بدأت من بيت النبوّة الكبير، وما لحقَ بإبراهيمَ من أذىً، حتى صاحب العصر والزمان وما تعرّضَ له آباؤه الطّاهرون من إنكارٍ بَيِّن لحقّهم، وإزالتهم عن مراتبهم التي رتّبهم الله فيها .

ثمَّ تتحدّثُ عن عقل كوني هو **عبد الله**، وقلبٌ كوني هو **محمد.** ثمَّ تقول: < **إنَّ من هذا العقل والقلب الكونيّين تفجّرت كلّ الرسالات، وظهر كلّ الأنبياء وفقاً للروزنامة الإلهيّة السّماويّة** >، ولا مُشاحَّةَ فيما أنَّ إبراهيمَ ذاك، هو عبد الله هذا ومحمد .

وللبذرة السرية تلك، أمّهات؛ هُنَّ النفس الكلية < **التي ظهرت بأسماء أنثويّة لدنيّة مباركة، هي هاجر، وأمّ موسى، وإيشاعُ، ومريمُ بنت عمران، وآمنة بنت وهب، وفاطمة ثمّ نرجس (عليهنّ السلام جميعهنّ)، وستلاحظ كيف أنّ أدوارهنّ في الحفاظ على البذرة أو النّطفة السريّة يتوزّع بين الأمّ والزّوجة، فهاجر زوجة لإبراهيم وأمّ لإسماعيل، وإيشاع زوجة لزكريا وأمّ ليحيى، وآمنة بنت وهب زوجة لعبد الله بن عبد المطّلب، وأمّ لمحمد(صلى الله عليه وآله)، وفاطمة زوجة لعليّ(عليه السلام)، وأمّ للحسين(عليه السلام)** >

في بيان
(مشروعها العِرفاني)

ومِمّا يليق بكرامة تلك الذات المُعَدّة لتسنّم مهام القيادة العالمية العظمى، هو أن لا تكونَ من مكوّنات هذا العالَم السفلي الذي هو مشوبٌ بالدنس والاستخفاف، وركوب الهوى، والانصراف إلى ما لا يحل من الملذّات.

ولابدَّ لنطفته الشريفة أن تكونَ من عالم التكوين، وهو عالَم التحقّق والثبوت؛ عالَم الخَلق والإيجاد، لا عالم الإمكان والشهود، وإن كانَ الأخير هو محل حلولها الواقعي الحضوري، الذي تمثّلَ في تمريرها في آدميّة <نرجس>؛ رحيق الأنبياء، وشذا الأوصياء، الذي اقتضت العناية الإلهية أن يكون منطلق التغيير الشامل الذي تنتظره البشرية .

وصَدَقَ الله وعده، وتشرّفت البشرية بولادته الميمونة، وأشرقت الأرض بنور ربّها، ثمّ اقتضت العناية الإلهية بعد سبعينَ عاماً أن تُختم الوكالة الخاصة سنة ٣٢٩ هـ ، وغُيِّبَ عن الأنظار بغيبته الكُبرى التي لن تنتهي إلّا بنهاية الزمان .

إنّ هذا الإمام الموعود لم يكن له تحققاً، واقعياً فحسب، بل تعدّى الواقعية الظاهراتية، وعالمها المأهول، إلى ما وراء ذلك ليصبحَ حتمياً ذو دلالاتٍ مؤكدة، كفيلة بظهوره بيّناً في ثنايا

الروح والأذهان، كالشمس حينَ يجلّلها الغَمام، فيحجبها ظاهراً، مع بقاء ظهورها ظهوراً له تحقّقاً ذو ماهية، مستقلّاً، تقديره في الأذهان لا في الأعيان، ولا ينفكّ عن جوارح الناظر – بحال .

إنّ فلسفة الظهور المتحقّق في كل العوالم تعني ضرورة أن يكون لهذا التحقّق مقاماً ظهوريّاً واحداً في عالَم الشهود، إلّا أنَّ الظّفرَ به لا يتحقّق لأيّ أحد على نحو الإجمال، بل تعتمد مشاهدة ذلك على **درجة الوعي الإنساني** لهذا النبأ العظيم، الذي هم فيه مختلفون. وأعني به: الوعي الخلّاق، الذي هو عملية عقلية معقدة، مصحوبة بالانتباه التام، وهو الإحساس بكل الحالات الانفعالية التي تعيشها الذات المدرِكة.

إنَّ الإعلاء من شأن العقلي على الحسّي، من مبادئ < **الفلسفة الأسمائية** > بل هي السمة الغالبة لمشروعها الناهض، حيث أدركت الدكتورة أسماء ضرورة تجاوز كل ما هو عرضي ومتغيّر، والتمسّك بما دونَ ذلك، لقناعتها بأنَّ الجزئيات الهيولانية التي تشكّل في الواقع قِوام المدركات الحسية، تحد من المدركات العقلية.وتشل القدرات التي تعيشها الذات، وبالتالي تفسد إمكانية الوصول إلى المعرفة الحقيقية.

نعم، إنَّ مجال الحواس لا يشكّلُ مصداقاً حقيقياً للطبيعة الجوهرية والنوعية للأشياء، بل انّ مصداقها الحقيقي هو ذلكَ

الإدراك المُفعَم بالمعاني السامية المُجرّدة عن المادة.

والعقلُ عند الدكتورة أسماء؛ أداة معرفية، وهو أمر أساسي لحدوث المعرفة. لكنها لم تكتفي بالمدركات العقلية، بل اتجهت إلى بيان محدودية العقل في إدراكه لعلم الباطن، وأسراره العظمى التي تتعدّى كل ما هو عقلي وحسّي. وكانَ هذا بيّناً من خلال العديد من نصوصها وقصائدها العرفانية. ولعلّها كانت تقول بالصنف الثالث مِنَ المعرفة التي قال بها ذو النون المصري؛ وهي معرفة صفات الوحدانية الخاصة بأهل ولاية الله المخلَصين الذينَ يشاهدونَ الله بقلوبهم حتى يظهر الحق لهم.

نعم، وتقدّم الدكتورة أسماء المعارف الوهبيّة على ما هو قائم على البحث والاستدلال والبرهان، فمنهجها لم يكن ليعتمد العقل رمزاً للفهم المادي فحسب، بل تعدّاه إلى المدركات الغيبية التي تأسّست عليها جميع بحوثها وتأويلاتها العرفانية .

وفي الوقت الذي يأخذ فيه الحكيم؛ منحى المنطق والبرهان، يتّبع العارف منحى التزكية، والتصفية، والسير، والسلوك. وعلى حدّ قول الأستاذ مرتضى مطهّري: < **فبينما كان العقل هو سفينة الحكيم، كان القلب سفينة العارف** >

إنّ مرحلة التعافي الروحي قد وصلت عند الدكتورة أسماء إلى مراتبَ متقدّمة، ما جعلها غيرُ مفتقرة إلى تأمّل الدليل، وكأني

أراها وهي تحاكي **القُشيري** في قوله: "**صاحب المحاضرة مربوط بآياته، وصاحب المكاشفة مبسوط بصفاته**" .

وتمضي الدكتورة أسماء لتقدّس الإنسانَ، ذاك الذي هو محلّ قيام العقل؛ الذي هو مبسوطٌ بصفاته. وتثمّن فيه مَظانّ الخير، ومواطن الرحمة.

وبمفرداتٍ ذات إشارات ودلالات، تبدو وكأنها تُزاوجُ الحضارات، فتستعيرُ مفردة < **العنخ**> من الحضارة الهيروغليفية المصرية القديمة، منذ أكثر من ٣٠٠٠ سنة ق.م، لتستقرَّ بها في رَحِم القرن الأول من الألفية الثالثة. إنها تريد أن تثبّت القيمة الحية للإنسان عبر تلك العصور؛ باعتباره المحور الذي تدور حوله الحكمة، تقول : <**نعم الإنسان هو العنخ الأكبر، بل هو عصا الحكمة نفسها**>.

وقد لوحظَ ذلك في معظم كتاباتها بكل الإشارات والدلالات العرفانية الكبرى. والإنسان هذا – عندها– هو الفرقان والقول الفصل والذكر الحكيم.وهو آية الله الكبرى، الذي سَخَّرَ له ما في السموات من شمس وقمر ونجوم. وما في الأرض من دابة وشجر وجبل وجماد وسفن. وجميع ما ينتفعُ به من فضلهِ وإحسانه من نِعَمٍ لا تُعَد ولا تُحصى.

قاهر طغاة العالَم السفلي

وفي اللوحة الثامنة من لوحاتها التشكيلية، المُعَبّرة **< ذو الفقار وساقيات السمّ >**، كانت قد لخّصت قصة ذلك الصراع التاريخي الدامي بينَ جنود الله وجنود الشيطان. واستعرضت ساقيات ذلك السيف (الحُسام) وحزوزهُ المُنفضّة عن متنهِ، وتناولت النساء اللواتي كُتبَ لهنّ أن يكنّ ساقياتٍ للسمّ، حاملاتٍ للموت الزؤام، في حضرة ذاك السيف المُفَقّر !

وأشارت إلى **جعدة بنت الأشعث**؛ ابنة أمير قبيلة كندة، العابثة في مملكة الحُسنِ والجمال، المنقادة بكاملِ إرادتها إلى اتباع الهَوى، واغتيال سَيّد شباب أهل الجنّة، وريحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله)؛ سيّدها ومولاها؛ الحسن المُجتبى (عليه السلام) مقابلَ مائة ألف درهم.

وفيها قالَ قيس بن عمرو بن مالك:

يا جعد! أبكي ولا تسأمــي   بكاءَ حقٍّ ليسَ بالباطل

لن تستري البيت على مثله   في النّاسِ من حافٍ ومن ناعِل

كما أشارت إلى **قطام بنت الشجنة**، إمرأة الخوارج، فائقة الجمال، تلك التي أغرت ابن مُلجم المرادي بجمالها، فَسَلبت عقله، فَهامَ بها، فوجدت به من يحقق قصدها بقتلِ أميرها

وسيّدها ومولاها أسد الله الغالِب؛ علي بن أبي طالب!

وفي قطام؛ يقول ابن أبي ميّاس المرادي :

فَلا مَهرَ أغلى منْ عليٍّ وإن غَلا ... ولا فَتَكَ إلّا دُونَ فتك ابنِ ملجمِ

إنّها بهذا القدر العالي مِنَ الفهم الواعي الخلّاق، المستوعب لتفاصيل ثنائية الموت والحياة؛ تسردُ للتاريخ؛ قصة صراعٍ مرير لم يعد خفيٍّ على أحد، ففي ثنايا السيف ذي الفقار الإثني عشر، تهاوت ساقيات السمّ، بعد أن عددنَ العدّة لنحرِ الباقيات الصالحات، فَسَلَكنَ السّبل المانعة من الدخول إلى الحضرة الإلهية. في الوقت التي بقيت فيه النطفة السرية في مأمنٍ أمين وركنٍ حصين !

وإلى عين الإمام المخلّص؛ الراصدة لجميع الحركات العرضية التي تمضي بلا علمٍ ولا حكمة، تشير الدكتورة أسماء في معرض تناولها إلى محور الصورة التشكيلية المُعبّرة عن فلسفة الحفاظ على النطفة السرية، وعن تهالك الساقيات في وُحُولِ الذِلَّةِ والمَسْكَنَة، تُشير إلى مواطنَ الخلل في سلوك الإنسان العامل، إذ أنَّ الانحراف الوارد في سيره السلوكي، الدائري المليء بالشكوك والانحرافات، طالما يورده موارد التهلكة، إذ لا يبصِرُ بعين اليقين ذلك النور الساطع الماثل كالطود الشامخ في

محور حركته الدائرية، تلك !

ويظلّ سائراً على هذا النحو، يدورُ في ساعته الكونية – بكلّ إيقاعاتها الخمس المسؤولة عن إيجاد تلك النبضات الكفيلة بخلق ذلك الإنسجام والتناغم الذي تحتاجه مملكة البدن ليَحِلّ بها الإمام – ولا يجدُ مَن يأخذ بيده نحوَ تلكَ العَين؛ المحور ! والتي لن يحظى بها ما لم يظفر بالوعي الأعلى، تقول الدكتورة أسماء:

< في حين أنّ الأمر برمّتهِ فيه نوعٌ مِنَ الإجهاد والإحباط، والدمار الذي يصيب النفس بسبب عدم قدرتها على تحقيق الوعي الأعلى، واللقاء بإمامها الموعود >

(الدّلو الأسمائي)
موضع قيادة العالَم

وإذا كانت اللوحات السابقة تشكّل قراءات **استكشافية**، تعطينا مداخِلَ عامة لطرائق الدخول إلى النَص، ففي اللوحة التّاسعة من لوحاتها الرائدة، تقدّم الدكتورة أسماء قراءةٌ **إستنتاجية** لخارطة فهم النَص، تُؤَسسُ له جنسه الخاص، وتضَعَ لهُ الهويّة الخاصة به. وهي قراءة اكتشافٍ تفتح الطريق على الأزمنة والأمكنة على حدٍّ سواء، وتُحيل القارئ إلى ميادينَ معرفية لم

تكن مُكتَشَفة من قبل !

وبعد رؤية الروح المشتعل في داخلها، يُدخلها عُلُو الهِمَّة مدار الساعة الكونية، وإيقاعاتها المتوهّجة بالنور الإلهي (المُعد لقطعِ دابر الظّلَمة، والمُنتَظَر لإقامة الأمْتِ والعِوَج، والمُدَّخَر لِتجديد الفرائضِ وَالسُّنن)

تقول الدكتورة أسماء: <**الساعة الكونية التي أُحدّثك عنها، أحاولُ اللحظة أن أرسمها لكَ، وبينما أنا في صدد فعل ذلك أرى رأس القلم بينَ إبهامي وسبابتي قد أصبحَ مُحاطا بدوائرَ من نور، وكلّها دوائرَ تتوهّج فوق الورق ...**>

إنّها عقارب الساعة الكونية، التي دَلَّتها على المركز المُحمّدي الخلّاق – سفينة النجاة التي مَن ركبها نجا وَمَن تخلّفَ عنها غَرقَ وهَلَك – ذاكَ الذي تحتاجهُ مملكة البَدَن من أجل تحقيق الظهور الموعود.

إنَّ لحظة تحقق الظفر بقاع **(الدلو الأسمائي)** هي نفسها لحظة تحقق الظفر بقوس الصعود – مقياس لطافة القلب – وهو الترقّي في القرب مِنَ الله، وهي نفسها لحظة الإفلات من قوس النزول – مقياس قسوة القلب وكدورته – والتأهّب لمعاينةِ جمال الجميل ... ﴿***فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ***﴾ .

(٢)

خصوصيّة الحركة الجوهريّة في فكر الدكتورة أسماء غريب

د. هيثم كاظم المحمود

تعتبر الحركة الجوهرية أحد المباني الفلسفية الأساسية في فكر الأستاذة الدكتورة أسماء غريب، ولتلك الحركة طبيعة مُتجدّدة، ما يشير إلى انَّ الجوهر عندها – والّذي يُعتبرُ فاعلاً طبيعيّاً للحركات العرضية – متحرّكٌ على شكل تصوّرات جزئية تشكّل مبادئ لتلك الحركة، والتي تتأثّرُ هي فيما بعد بالعوارض الخارجية لتشكّل مع الحركة الأوّلية دورة الحرف وَسورهُ الأعظم.

وعلى خلاف البحوث المَسْحيّة التي كثيراً ما تَتَّسم دراستها بالسّطحية وقلة العمق، كانت الدكتورة أسماء تستقصي وتمسح الواقع لتحدّدهُ وتشخّصهُ وتَصِفَهُ وتستعينَ لأجل ذلك بأدواتها العرفانية ذات الدّلالات الموثوقة. وكانت بحوثها الوصفية من أرقى الدراسات المَسحيّة، حيث أنّها لم تكتفِ بوصف الواقع والوقوفِ عنده، بل راحت ترصدُ نواحي القصور والضّعف في البحوث الوصفية المُتَداوَلة التي سبقتها.

لقد بلغت الروح عند الدكتورة أسماء غريب مرتبة العقلانية المحضة، فحضيت بتجلّي حضور جميع الموجودات بكمالاتها

الوجودية بعد أن كانت حركتها الجوهرية قد تجرّدت من جميع أشكال المادة والتّعلّقات من سنخ الارتداء بعد الارتداء، لا من سنخ الارتداء بعد الخلع. ولم يكن اتّصافها بهذه الحركة عبثيّاً أو لا طائل منه. بل هي حركة دائبة وخالدة، سائرة نحوَ البحث والتّقصّي الخلّاق عن سر دائرة الوجود وقوسها الصّاعد؛ الإمام الهُمام؛ القائم بسائر أدوات وشؤون الإمامة والخِلافة ، الحامل للرسالة الإلهية التي تحمل الناس كافّة إلى النظام الأصلح. الإمام الّذي تتجسّد فيه جميع الصّور النّورانية الكاملة التي سبقته، والكفيل بأن يُتَّبَعَ معَ تمام الاطمئنان من ناحيته بالنفع الكامل .

وكيف لا يكون ذلك وجدّه محمد؛ ذاك الذي أوصى به خيرا، محمد النّبي الذّي كانَ يروي حكاية التطوّر والعروج في ملكوت النفس. كانت تراه بوضوح؛ قلبَ عالَمَ الوجود.

وبعد أن تيقّنت أنَّ فكرة الإمامة هي الأكثر رسوخاً في جادة العقل والمنطق، بما تحتويه من انسجام تام مع اللطف الإلهي، وما تقتضيه من عدم ترك الله الناس دون هداية وهاد؛ فعظمة الرسالة لا بد أن يقابلها عظمة المُرسل الحاملَ لها والمُكَلَّف بنقلها من مقام الأحدية السامي إلى مقام الكشف التام، تقول الدكتورة أسماء:

< محمّدٌ هو المعجزة الحقيقيّة أيّها السّادة، إنّه أكثر إعجازاً من القرآن ذاته، إنّه الذّات الّتي تسَبِّح وتقَدّس خالقَها في الأجساد كلّها ولكن لا تفقهون تسبيحَه، إنّه هذا القلب المصطَفى الّذي نحملُ بين جوانحنا، والقرآن إنّما يحكي سيرته في الغابرين والظّاهرين > (د. أسماء غريب، دزاكرا، بأجزائه الستة، ص٢٥٢)

لقد تَدَرَّجت الدكتورة أسماء غريب في حركتها الجوهرية هذه إلى مسيرة المعرفة الظاهراتية لتتحرّك بشكل متوالٍ من مرحلة إلى أخرى حتى بلغت أسمى أشكال المعرفة وأكثرها واقعية، فكانت أكثرَ إدراكاً و أكثرَ شعوراً بالحريّة. الحرية التي هي التحرر من كلّ القيود الفكرية التي كانت تكبّل طاقاتها وإنتاجها، فتصدّرت بحق نساءَ عصرها لتلتحق في ركب السائرين المُمَهِّدين للظهور المُقَدَّس بعد أن أسلمت أمرها للحكومة العالمية الغيبية ذات اللطف والتّسديد الإلهيين، إذ لا يُتَصَوَّر أن يُبقيَ الله تعالى الكون بما فيه من عجائب القدرة وصنائع الموجودات بهذه الصّورة من الهيمنة الغربية على مقدّرات العالَم، والواضحة معالمها على المشهد المُعاصر بكلّ أبعاده، حيثُ الفقدان البيّن لأبسط قواعد العدالة الإنسانية.

إنَّ ماهية النهاية الحتمية للتاريخ وصِفَتها لا يمكنُ أن تكون إلّا

بالرعاية الإلهية المُحاطة بألطاف الله كما هي دلائل الآيات: ﴿ونجعلهم أئمَّة ..﴾ ، ﴿ونجعلهم الوارثين ..﴾، مِمّا يدلّل على أنَّ الهيمنة والتمكين ستكون بجعل إلهي. وهذا ما سيكون برعاية بقية الله الأعظم، فقد ورد في الروايات المتواترة ما يُشيرُ إلى ذلك فقد أخرج أبو داود والترمذي رضي الله عنهما بسندهما في صحيحيهما يرفعه كل واحد منهما بسنده إلى عبد الله بن مسعود رضيَ الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "لو لم يبقَ من الدّهر إلّا يوم واحد لطوَّل الله ذلك اليوم حتى يبعث الله رجلا منّي أو من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجورا". (بحار الأنوار، العلامة ألمجلسي، ج٥١، ص١٠٢)

وكذا: "لو لم يبقَ منَ الدُّنيا إلَّا يومٌ لطوَّلَ اللَّهُ ذلِكَ اليومَ حتَّى يَبعثَ فيهِ رجلًا منِّي – أو من أَهْلِ بيتي – يواطئُ اسمُهُ اسمي ، واسمُ أبيهِ اسمُ أبي يملأُ الأرضَ قِسطًا وعدلًا ، كما ملئت ظُلُمًا وجَورًا . وفي لفظٍ لا تذهبُ – أو لا تَنقضي – الدُّنيا حتَّى يملِكَ العربَ رجلٌ من أَهْلِ بيتي ، يواطئُ اسمُهُ اسمي".(صحيح ابن داوود، المصدر: المحدّث الألباني، الراوي: عبد الله بن مسعود، وكذا أخرجه أبو داوود ٤٢٨٢ واللفظ له، والترمذي ٢٢٣١، مُختصرا)

إلى غير ذلك مِنَ المصادر، وكذا ممّا ورد في روايات المسيح واليهود في الإنجيل والتوراة. ففي البشارة التالية من سفر أشعيا النّبي التي تحدث القاضي جواد الساباطي عن دلالتها على المهدي وفق عقيدة الإمامية الإثني عشرية: "وفي ذلك اليوم سيرفع «القائم»* راية الشعوب والأُمَم التي تطلبه وتنتظره ويكون محلّه مجداً". **(أهل البيت في الكتاب المقدس: ١٢٣ ـ ١٢٧)**

*** اختص هذا اللقب بأئمة العترة الطاهرة، واذا أُطلق كان المراد منه الإمام الثاني عشر المهدي المنتظر(عليه السلام)، راجع كتاب النجم الثاقب لآية الله الميرزا حسين النوري ١: ٢١١، من الطبعة المترجمة الى العربية، وقد ذكر الميرزا النوري أنّ هذا اللقب مذكور في الزبور الثالث عشر وغيره، نقل ذلك عن كتاب ذخيرة الألباب للشيخ محمد الاسترابادي.**

ومِمّا جاء في المزمور ٧٢ من مزامير النبي داود **(**عليه السّلام**)** التي وردت في الكتاب المقدّس، والتي تشير إلى منقذ سيصلح هذا العالم، ويقيم دولة العدل والقسط ويخلّص البشرية من نير الظلم والجور . وهذا المنقذ كما في المزمور هو ابن صاحب شريعة عالمية ستسود على هذه الأرض في آخر الزمان.

فلنتأمل في ما جاء في الكتاب المقدّس: (اللهمَّ أعطِ شريعتك للملك، وعدلك لابن الملك؛ ليحكم بين شعبك بالعدل، ولعبادك المساكين بالحق. فلتحمل الجبال والآكام السّلام للشعب في ظل العدل؛ ليحكم لمساكين الشعب بالحق، ويخلّص البائسين، ويسحق الظالم، يخشونك ما دامت الشمس، وما أنار القمر على مر الأجيال والعصور. سيكون كالمطر يهطل على العشب، وكالغيث الوارف الذي يروي الأرض العطشى، يشرق في أيامه الأبرار، ويعمّ السّلام إلى يوم يختفي القمر من الوجود ، ويملك من البحر إلى البحر، ومن النهر إلى أقاصي الأرض.

أَمامَه يجثو أهل الصحراء، ويلحس أعداؤه التراب. ملوك ترسيس والجزائر يدفعون الجزية ، وملوك سبأ وشبا يقدّمون هدايا، يسجد له كل الملوك، وتخدمه كل الأُمَم ؛ لأنه ينجي الفقير المستغيث به، والمسكين الذي لا معين له، يشفق على الضعفاء والبائسين، ويخلّص أنفس الفقراء، ويحرّرهم من الظلم والجور، وتكرم دماؤهم في عينيه. فليعش طويلاً ، وليعطَ له ذهب سبأ، وليصلَّ عليه دائماً ، وليبارك كلّ يوم .....)

لقد كانت تلك النصوص وغيرها مِمّا يشير إلى أحداث آخر الزمان موضع عناية ودراسة وتأمّل الدكتورة أسماء بعدَ أن تيقَّنت أنّ (خلافة الله) في الأرض لا تنقطع ؛ لئلاّ يزيغ الناس عن

الحق. ولذا فلا بدّ في كلِّ زمان من حجة على الخلق يكون ترجماناً لوحي الله تعالى وتعاليمه.

وللحُرية في فكر الدكتورة أسماء غريب حاكمية خاصة؛ تحكمها قوانين الدولة الكونية، التي تمتدُّ جذورها إلى خزينة الرحمة الإلهية، وتتفجّر في قعرها الأسئلة الكُبرى. فالكتابة التي يُنتَظَرُ منها أن تكونَ وليدة الحركة الفاعلة في الجوهر، يجبُ أن تكونَ خاضعة لمعايير تلك العوالم العلوية التي تشكّلُ دعائِمَ تلك الدولة الكونية.

ولأنَّ العوارض الخارجية تؤثّر بالضّرورة على الحركة الجوهرية التي هي مَبعث نبوّة الحرف وقيامة النقطة، وما ينشأ هناك يكونُ هنا؛ تلفتُ الدكتورة أسماء إلى ضرورة الانتباه لما أسمتهُ بـ (قرين الكتابة) الّذي غالباً ما يُفسِدُ الكاتبَ ويهبطُ به إلى الدَّرك الأسفل مِنَ الجّحيم، تقول :

﴿وإنّما قرين الكتابة؛ أي تلك الروح التي تستولي على فكرك وتعشعش في كلّ مكانٍ من عقلك، وتغرقكَ بالأفكار التي لا أوَّلَ لها ولا آخر، و توهمكَ بأنَّ الحياة في الكتابة هيَ الأسمى والأرقى والأفضل، ولا تتركُ لكَ مجالاً لتستوعبَ فيه أنّكَ أصبحتَ عبداً أسيراً لا حولَ لكَ ولا قوّة؛ إنّها مُخدّر فتّاك خبيرٌ بكلّ ألاعيب الحرف والأبجديات وعلومها، قرينُ الكتابة هذا

شديد الخُبث والذّكاء، يوهمكَ بالحُب فتكتبَ عنه، ويوهمكَ بالسعادة فتكتبَ عنها دونَ أن تتذوّقَ طعمها ...> (د. أسماء غريب، ويثة السرّ (رواية)، دار الفرات للثقافة والإعلام، العراق ٢٠٢١، ص٥٢)

فالكتابة إذن – ووفقاً لمتبنّيات الدكتورة أسماء– ولكي تخرجَ الحقيقة – كما هيَ– إلى الدائرة في محور الوجود، وتضَع النقطَة على الحرف وضعاً يليق بكينونيّتها ويحقّق تحقّقَ أبعادها في عالم الوجود فإنّه لابدّ من أن تسيطر على قرينها وتجعله طوعا لأمرها، تقول الدكتورة أسماء:

< الكتابةُ الّتي لا تشفيك اتركها. والكتابة الّتي تجعلكَ تحوّل غرفتكَ إلى محرقة تشعل فيها السّيجارة تلو الأخرى، غادرها. والكتابةُ الّتي لا تُحييك، اهجرها. والكتابة الّتي لا تحبّكَ و تبنيك وتسقيكَ رحيق المعنى، أغلق في وجهها الباب > (نفس المصدر السابق، ص٥٢)

وتقول : < وعلى القرين الكاتب فيك أن يتطهّرَ بماء الروح والنّور ليصبح له أوقات يشيرُ فيها عليكَ بالكتابة كانّها أوقاتُ صلاة أو عبادة > (نفس المصدر السابق، ص٥٣)

وتدعو الدكتورة أسماء إلى مغادرة المكان الّذي يقيّد الفكر ويجعلهُ أسيرا للواقع المتجمّد، ذاك الّذي يخلق الفراديسَ الوهمية،

تقول: < إنَّ التعلّم يحتاج إلى مغادرة الأسوار والسياحة في أرض الله الواسعة حتّى تتخصّبَ مخيّلتكَ وتصبح قادراً على التّحليق السرياليّ العجيب . افتح عينَ قلبكَ على العالم الّذي أنتَ فيه وعلى الزّمنِ الّذي هوَ فيكَ، ولا تفصل أبدا بين الجسد والرّوح، فجسدكَ هو ناقتكَ وبراقك، وهوَ بقرتكَ الّتي لا شيّة فيها . تصالح معه يُرِكَ الوجودَ كما هو > (د. أسماء غريب، دزاكرا، إمامَكَ المُنتظر كما لم يخبرك عنه احد، الأجزاء الستة، دار الفرات للثقافة والإعلام، العراق، ص٢٥٣).

وتقول: < ولا يوجد في الكون روح تقيّة إلّا وَعَينها على ذاك المكان القَصيّ من مدينة الحقّ والوصول إلى برج الإمام، يعني أنّه على الإنسان أن يتحرّر من أوهامه وإحباطاته وخيباته ويعرف كيف ينتظر ويصبر إلى أن تظهر شمس الإمامة في قلبهِ > (المصدر السابق، ص٦٥)

نعم، و بهذا الفهم الواعي لهذا المعترك الفكري لحركة الذات المُفكّرة؛ تضع الدكتورة أسماء غريب الحلول التي تسمو بهدفية الحركة لتكون مدعاة لتحقق حضورها الوجودي الفعّال، المُثمر الذي يشير إلى حقيقة مُراد الإرادة الإلهية، وتجسيداً واقعيّا لها .

وفي إطار فهمها الواعي لثنائية **الذات – الموضوع** تشترك الدكتورة أسماء غريب مع مارتن هايدغر وتختلف مع هوسرل؛

فالمعرفة عندها انكشاف ورفع للحجاب؛ ممّا جعلَ فلسفتها حقلاً خصباً ينشط فيه النور واليقين ويختفي فيه العبث والقلق.

إنَّ النَّفسَ عند الدكتورة أسماء غريب – وضمن حركتها الجوهرية – لابدَّ أن تكون قد اجتازت مراتبَ متعدّدة ومَنازلَ مُشَكّكة كانت تلزمها أن تتخلّصَ من تبعات ذلك الصّراع الّذي صارَ فيما بعد منشأً لكمال النفس الناطقة عندها، ومحلّاً للثبوت والسّكون، وإيذاناً لثورة الحرف و قيام النقطة.

لقد استشعَرَت – في لحظةٍ ما– أنَّ وجود جميع الكائنات يسيرُ نحوَ الشّوق للمَبدَأ وأنّه لابدَّ لتلك الحركات العرضية من محورٍ هو محل الثبوت والسّكون، متحرّرٌ مِن قيود الزّمان والمكان فيما وراء النظام المادي .

تقول الدكتورة أسماء: < إنّ النّفس كما أظهرها لي إمامي شيء عجيب و مُبهِرٌ حقّا، إنّها البقرة الّتي أسلمت أمرها لله، فشرَحَ صدرَها للنّور وأعطاها عصا الحكمة والبيان وميّزَها بالهدوء والهمّة العالية وفتحَ عينيها على إمَامِها ليعلّمها كيفَ أنّ في أرض البدن تكون الأحلام على نوعين، نوع هو مجرّد أضغاث وأوهام، وهو الّذي غرق فيه فرويد وكلّ من سار على نهجه، ونوع آخر هو الرّؤيا التي تأتي للنّفس من الله وملائكته وكلّ قوى الخير في الكون، وهو النّوع الّذي لا يعرف عنه الفرويديّون

شيئا، لأنّهم لا يؤمنون أصلا بالله ولا بالغيبيّات، ولا بالإمام الموعود ولا بأيّ شيء يصبُّ في علومه، ولا يؤمنون بأنّ النّفوس تتزكّى وتتطهّر وتنتقل في معارج توصلها إلى برّ الأمان، فيتغيّر الإنسان من حال إلى حال ويخرج بموجب هذا النوع من التدرّج في مسالك السّائرين من الظّلمات إلى النّور > (د. أسماء غريب، دزاكرا، إمامَكَ المُنتظر كما لم يخبرك عنه احد، الأجزاء الستة، دار الفرات للثقافة والإعلام، العراق، ص ٢٥٩-٢٦٠)

إنَّ تلكَ التّحولات الفكرية في فلسفة الدكتورة أسماء غريب تماثل ما ذهبَ إليه صدر المتألّهين الشّيرازي؛ فالشيء في جوهره وذاته يتغيّر ليتحوّلَ من جوهر أضعف إلى جوهرٍ أقوى وأكثر تكاملاً. والحركة الجوهرية هي التي تتيح ذلك الإمكان الّذي على أساسهِ تتبدّل الحقائق فيما بعد.

***

و لَمّا كانَ مفهومهُ عندها من أعرف الأشياء، وكُنههُ في غاية الخَفاء، صارَ لِزاماً عليها أن تسرُدَ النص في مساحةٍ لا يُحتملُ فيها تنوّع الفهم والتأويل ممّا ليسَ فيه، وهو عملٌ فكريٌّ شاق يحتاج إلى مجهودٍ ذهني، وديناميكية خاصة. فراحت ترسمُ إطاراً لمنهج التعامل مع النص بالشكل الّذي يبعدهُ عن مَثار النزاع

بعدَ أن آثرتْ أن تُبعدهُ عن الإسقاطات المُحتملة بأن أبعدتهُ عن الإطار اللغوي وانتقلت به إلى الاستعمال الاصطلاحي، فصارت البركات المعنوية الصادرة من الناحية المُقدّسة تنزلُ عليها ممّا كانَ يوجب النظر والالتفات، فاطمئنَّ قلبها حتى صارَ الأمر عندها مِنَ الواضحات .

لكنَّ تعريف الواضحات مِن أشكل المُشكلات؛ إذ أنّهُ مِنَ المُمتَنع انتزاع مفهوم واحد من مصاديقَ كثيرة، لِذا كانَ التَّوجّه عندها مغايراً لما هو مألوف (كما لم يخبركَ عنهُ أحد)، فهو روح ومحور الوجود وولي الله الأعظم، بل هو قطبه ومحوره والحافظ له، وَمَن يهبَ له الحياة. فحقٌّ على كلّ حي أن يعرفهُ وينتظرهُ بل ويُمَهّد لظهورهِ فهو المُعَدّ لقطع دابر الظَّلَمة، الّذي يشقُّ ظُلمة الزّمن، ويكسرَ بُعدهُ، ليتحقق أمل المُستضعفين والمظلومين.

تقول الدكتورة أسماء غريب واصفةً قيمومة الإمام المخلّص على جميع الممالك والأكوان إيماناً منها بحاكميته الصّادرة من المحل الأعلى والمُؤيَّدَة بسلطان العزّة على هذه النَّشأة:

< الإمامُ القائم، هو القيّم على الممالك والأكوان كلّها، والنّاظر إلى المصالح الكلية والجزئية، والمحَدِّد لما يصلح للخلقِ من عقائد دينيّة وإرشادٍ نفسيٍّ وأخلاقيّ، وكيف لا، و هو الهادي

ملجأ كلّ ضعيف ومأمن كلّ خائف، وحبل الله المتين وعروته الوثقى > (المصدر السّابق، ص ٧٠)

***

وإيماناً منها بالموقف الذي ينادي بالحتميّة التاريخيّة، ويدعو إلى استخلاص الأحكام الكلّية التي تمكنّ من التنبّؤ بما سيحدث في المستقبل، وبأنَّ آخرَ الزمان تعبيرٌ عن المرحلة النهائية لحركة التاريخ، وعلى خلاف البحوث السّطحية التي كثيراً ما تكتفي بظاهر الأمر دونَ التّعمّق فيه، قدَّمت الدكتورة أسماء غريب بحثها الرّوائي الموسوم (دزاكرا؛ إمامكَ المُنتظَر كما لم يُخبركَ عنه أحد) بأجزائه السّتة؛ موسوعة روائية؛ اتّسَمَت بالإخراج الأدبي النثري المُمَيَّز الّذي كانَ السردُ فيه مبنيٌ على الحوار؛ الّذي كانَ يشكّل الصّوت المسموع لشخصيّاتها.

وكما تميَّزَ – باختين – عن معاصريه بالنظرة المتفرّدة للرواية والتي رأى فيها أنَّ الرواية ليست نثرًا للحياة الأرستقراطية؛ تميّزت رواية الدكتورة أسماء بمحاكاة واقع حتمي الظّهور، وإن لم يكن له تحقق خارجي؛ لكنه سيأتي ليغيّرَ وجه العالم.

ولتجلّيات التناص القرآني في روايات الدكتورة أسماء غريب حضورٌ مُمَيَّز يعكس الثقافة الإسلامية العالية التي تحملها، ويصوّر المنظومة الفكرية ذات الخصوصية التي تعبّر عن

مدرسة متكاملة.

وكما دانت معظم المدارس العربية والغربية لـ باختين في إعادة هيكلة فن الرواية، فإنها اليوم مُطالَبة بالوقوف على النظرة المُبتكرة للسّرد الروائي الّذي جاءت به الدكتورة أسماء غريب والقاضي بتعدد اللغات والأساليب والأصوات والملفوظات اللسانية التي تنقسمُ الحوارية فيها إلى حوارية صريحة وحوارية مضمرة، لكنّها تشتركُ جميعاً في فضاءٍ واحد؛ متآلف فنيّاً وجماليّاً ضمن وحدة نسقية هارمونية.

نعم، إنَّ التفاعل اللفظي أو التداول الكلامي داخل النص (الأسمائي) ذهبَ إلى تعدد الحوارات التخييلية على مستوى الشكل: تلك التي تعطي وجوداً حضوريّاً للذات المتكلّمة ووجوداً حضوريّاً للذات الأخرى، ما جَعَلَ العلاقة التخاطبية منظوراً سرديّاً متميّزاً يُعبّرُ عن ظاهرة فريدة في الحوار الثّري داخل النّسيج النّصي.

وتميل الدكتورة أسماء غريب إلى التناص القرآني الذي يميل إلى إحالة النصوص متعددة الدلالة إلى النص القرآني في تفاعل نصّي خلّاق، لا يترك مجالاً لتأويل النصوص بتعدد القرّاء. لذا فهي تشترك مع جوليا كريستيفا القائلة بأبوة النص وتختلف مع رولان بارت الذي قال بجواز تعدد التأويل بتعدد القرّاء، فالمسألة

عند الدكتورة أسماء تتميّز بالأصالة المحضة التي لا يُحتمل فيها التأويل؛ إنها ثقافة لها خصوصيتها، وجنسها القصصي، جاءت نتاجاً خالصاً لخيالٍ خصب ذو متبنّياتٍ قِيَميّة تستهدف العقل الواعي لدى القارئ.

***

وليس المهديُّ وحده مَن تمرّست وَصَفاتهُ العجائبية في نفسها الطيّبة، بل حتى آبائه الطاهرين، أولئكَ الّذينَ أذهبَ الله عنهم الرّجس وطَهَّرهم تطهيرا. فقد كانت تعيشهم روحاً وجسداً، تقولُ الدكتورة أسماء في وصفِهم: < إنّهم ممثّلوا المبدأ الذّكري وسفراء الإمام الخليفة في مملكة البدن، - ولعلّها تريد بذلك النبي الخاتم صلى الله عليه وآله - وعددهم اثني عشرَ رجلاً، وهم سلاطين وملوك في كلّ مكان حلّوا فيه... وهم الثمار الإثني عشرَ لزينب شجرة الحسنِ والجمال >. (المصدر السابق، ص٦٤)

وللرقم ١٢ في ذاكرة الدكتورة أسماء غريب فهماً حقيقياً وحركة خاصة جاءَت مستوعبة لكل الحركات الشوقية الكائنة في النفوس الملكوتية، تقول:

< عجيب هذا الرقم ١٢ إنه يغطّي كافّة العمليّات التخليقيّة في الكون الإلهي، وهو حاضر في كلّ النصوص المقدّسة ومرافق

لكل الشّخصيات المباركة > (المصدر السابق، ص٦٤)

إنَّ الخيالَ عند الدكتورة أسماء غريب، خيالٌ غنيٌّ وخصبٌ وواسع؛ وهو جنسٌ أدبيٌ حديث في الثقافة العرفانية يجبُ أن يضاف إلى قاموس المعاني. وهو يشتركُ معَ الفنتازيا كونه معالجة إبداعية خارجة عن المألوف، لكنّه يختلفُ معها بعدم اعتماده على الأشياء الخارقة للطبيعة كعنصر أساسي للحبكة الرّوائية.

والخيال الّذي تريدهُ الدكتورة أسماء لم يكن من عنديّاتها، بل هو فيضٌ من فيوضات النقطة وعالَماً سامياً من عوالمها، لا يصدرُ منها إلّا وقد تعرّضَ للعناية الإلهية، تقول : < .. فأنا النّسّاجة المغَربلة صائغة التّبر والماس، ولستُ أحكمُ على النّاس بمظاهرهم ولا بأقوالهم أو بِما قد يبدو مِن أفعالهم، وإنّما بالقلوب وما تخفي من أسر ر > (المصدر السابق، ص ٨٣)

إنَّ الخيالَ عند الدكتورة أسماء غريب؛ منظومة قِيَميَّة مُتكاملة؛ يكشف نظرتها الروحية إلى الحياة والكون بصورة عامة. تلك النظرة التي تُعبّرُ عن الإدراك العميق لصلة الحياة والكون بالله وانبثاقها عن قدرته وتقديره، والتي كَيَّفَت حياتها طبقاً لرضاه جَلَّ شأنه: ﴿واتَّبَعوا رِضْوانَ الله واللهُ ذُو فَضْلٍ عَظيم ﴾، فكانت ذو حَظٍّ عظيمٍ مِنَ الدّقّة والوعي عَبَّرَ عن إطارها الرّسالي، فحظِيَت

بالموج المعنوي المُتزايد الذي عبّرَ عن إخلاصٍ أصيلٍ، لا إخلاصٍ سطحيٍّ.

نعم إنَّ الأشخاص واسعو الخيال هم مَن يُغَيّرون العالَم بتفكيرهم المُبتَكَر غير النَّمطي؛ وهكذا اليوم هي الدكتورة أسماء صاحبة النَّص الحداثي الّذي يسردُ قضايا هامة بخيالٍ يوظّف المعرفة للوصول إلى الحقيقة. فالخيالُ إذن على حدّ قول أنشتاين: "الخيالُ أهمّ مِنَ المعرفة، بَل أهمّ مِنَ العِلم".

لقد وظّفَت الدكتورة أسماء غريب؛ الخيال للإتيان بأفكار وأساليبَ مبتكرة جديدة تتناسب وروح العصر الحديث لذلك فهيَ توافق متبنّيات كانط الذي يعتبر التخيّل عنصر أساسي في الإبداع.

مُلحق اللّوحات

اللّوحة ١: الفرعون الصّغير

٢٠٢١/٠٣/٢٤

اللّوحة ٢: رؤية النور في ربيع الأذريون / ٢٠١٢

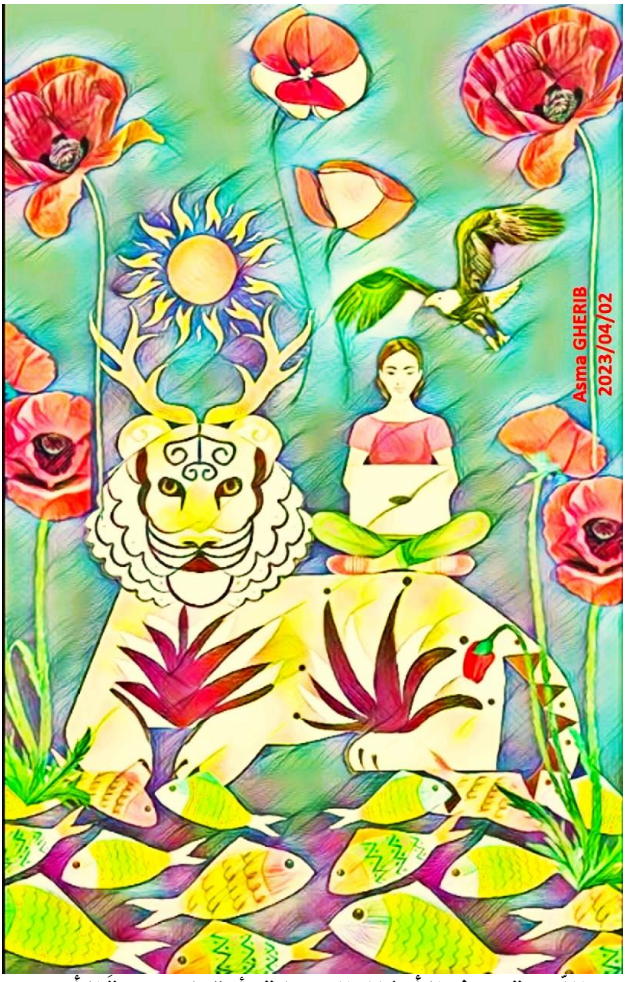

اللّوحة ٣: في الأدغال البحريّة، أمتطي صهوة الأسد
٢٠٢٣/٠٤/٠٢

اللّوحة ٤: الفرعونُ يطلبُ يدي

٢٠٢٣/٠٣/٣٠

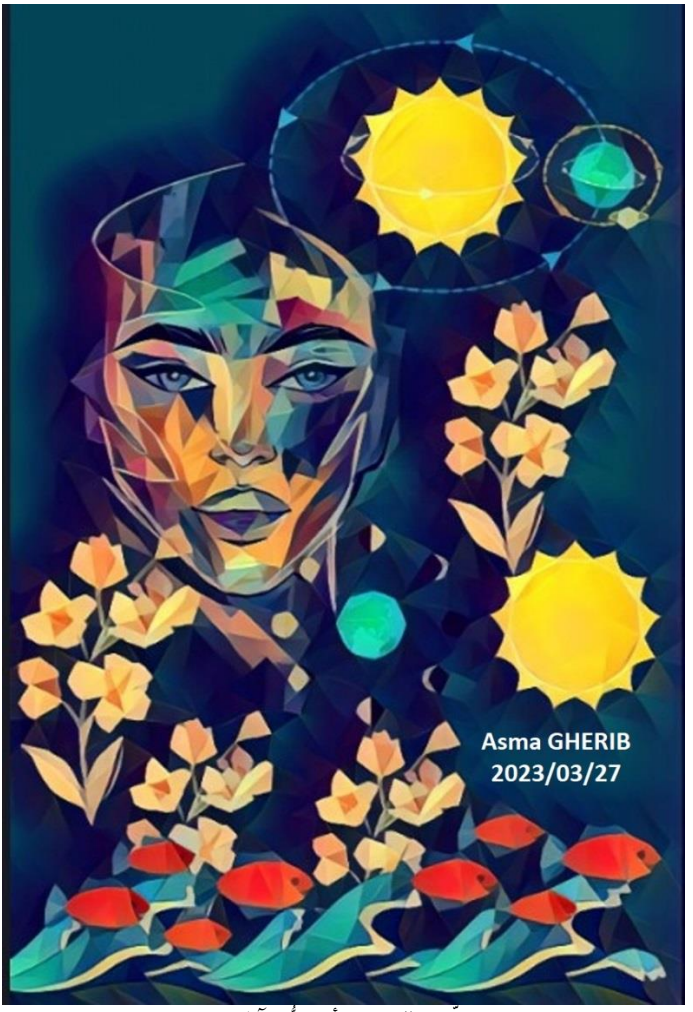

اللّوحة ٥: لا أحبُّ الآفلين

٢٠٢٣/٠٣/٢٧

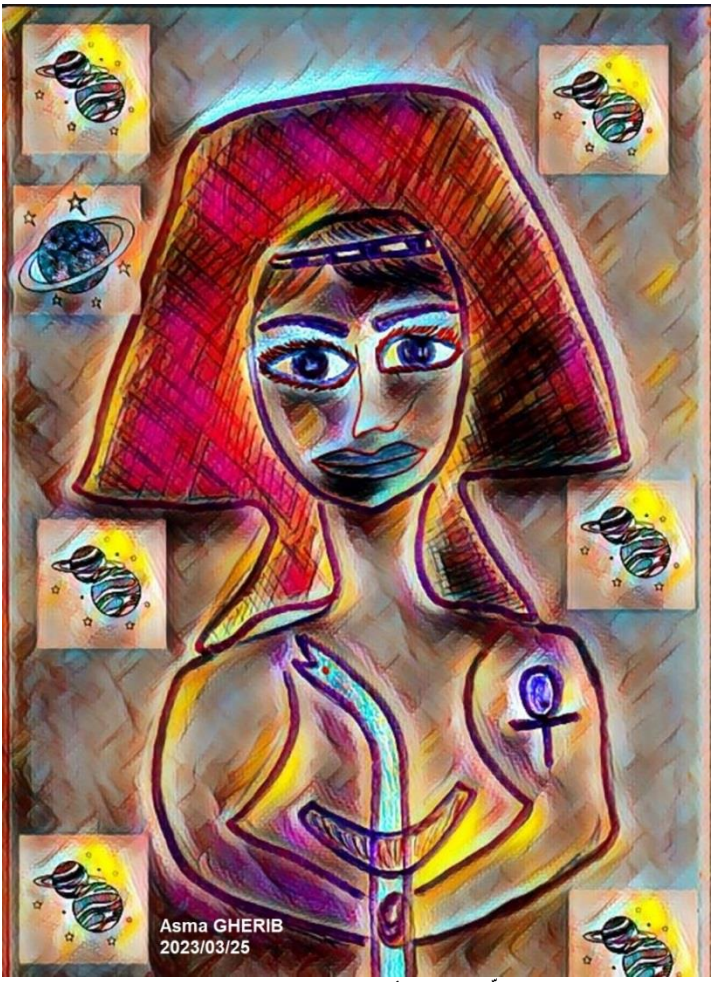

اللّوحة ٦: أنا ذو الفقار والمفتاح في يدي
٢٠٢٣/٠٣/٢٥

اللّوحة ٧: ذو الفِقار
٢٠٢٣/٠٣/٢٣

اللّوحة ٨: ذو الفقار وساقيات السمّ
٢٠٢٣/٠٣/٢٤

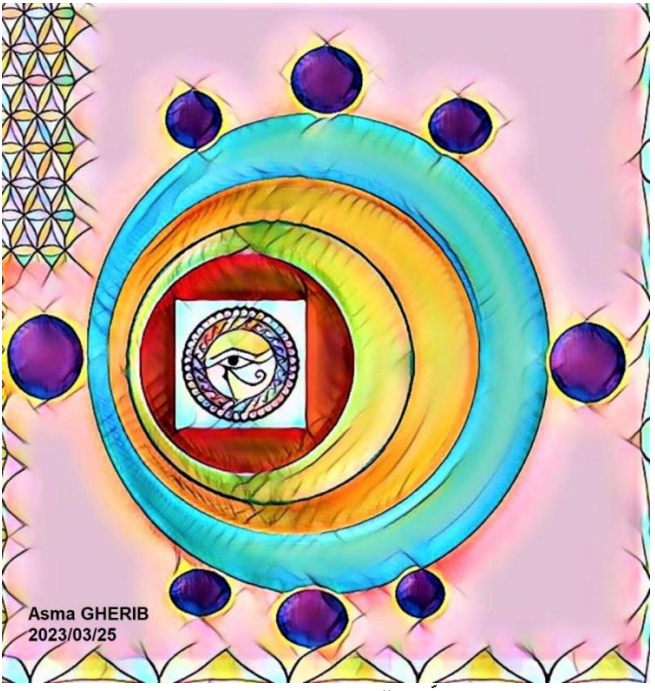

اللّوحة ٩: إكسير الإمام

٢٠٢٣/٠٣/٢٥

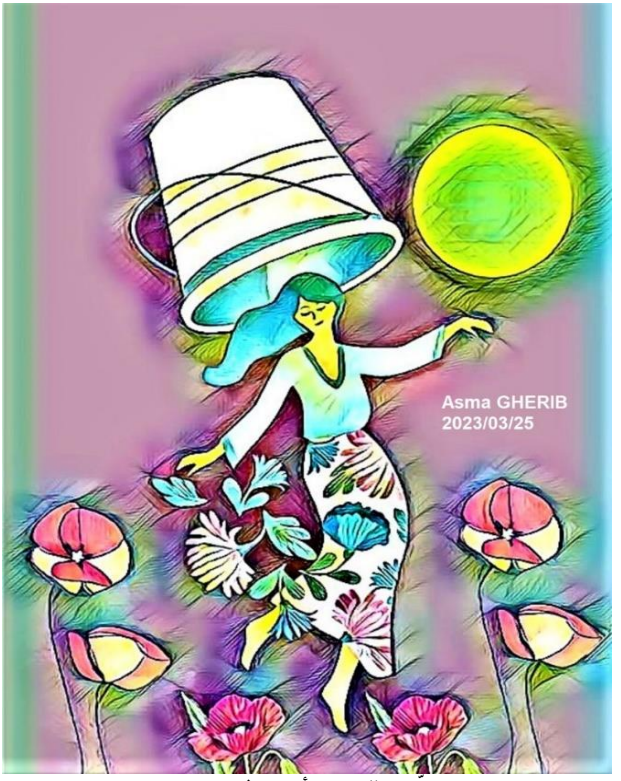

اللّوحة ١٠: رأسي في الدّلو
٢٠٢٣/٠٣/٢٥

اللّوحة ١١: كهف الإمام

٢٠٢٣/٠٣/٢٥

اللّوحة ١٢: هل تسمح لي بالظّهور؟!

٢٠٢٣/٠٣/٢٧

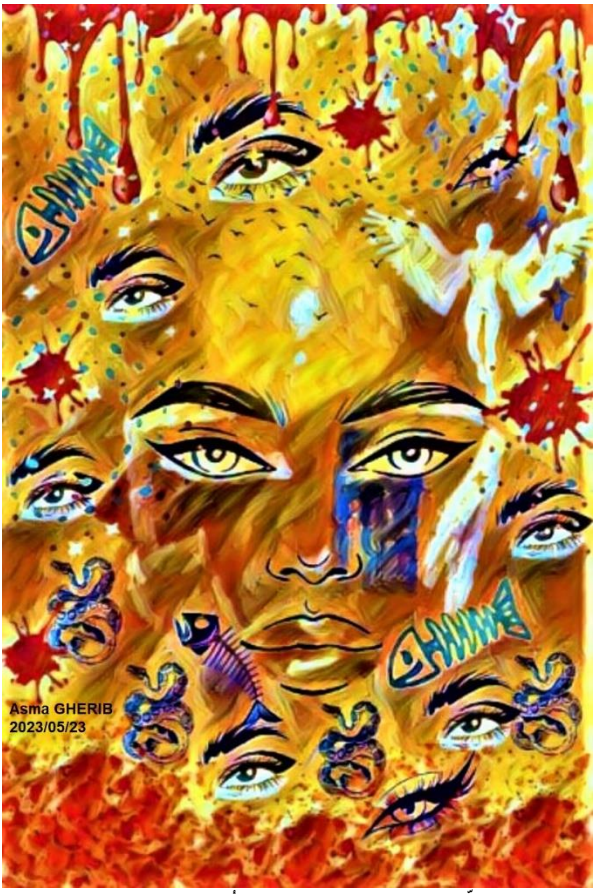

اللّوحة ١٣: صقيل تهبطُ إلى الجحيم

٢٠٢٣/٠٥/٢٣

اللّوحة ١٤: صقيل ترتدي لباسها الهيروغليفيّ
استعداداً للخروج من الجحيم
٢٠٢٣/٠٥/٢٣

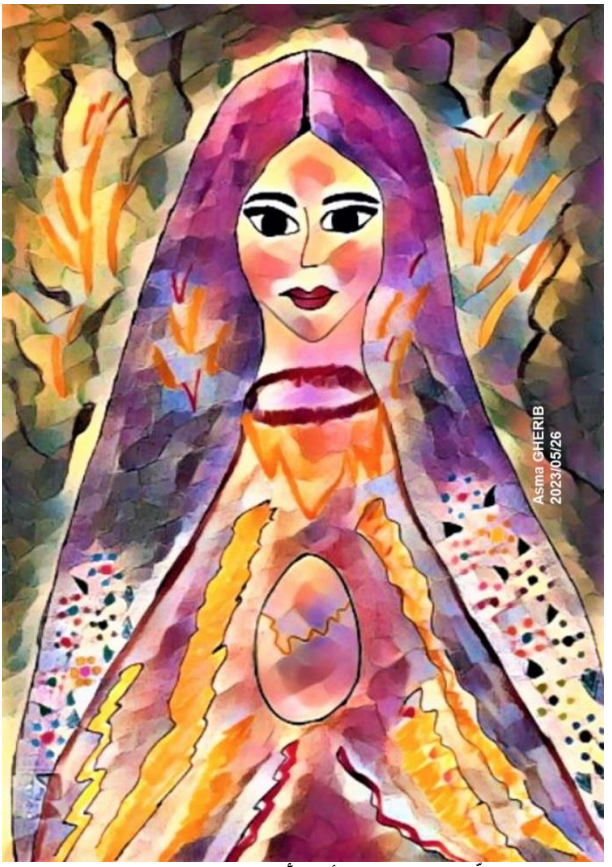

اللّوحة ١٥: امرأة الأعماق البركانية
وهي تحرُس بيضة السرّ
٢٠٢٣/٠٥/٢٦

اللّوحة ١٦: ساقيتا السمّ وقاطعتا الرّؤوس؛ قطّام وجعدة

٢٠٢٣/٠٥/٢٠

٢٠٢٣/٠٥/٢١

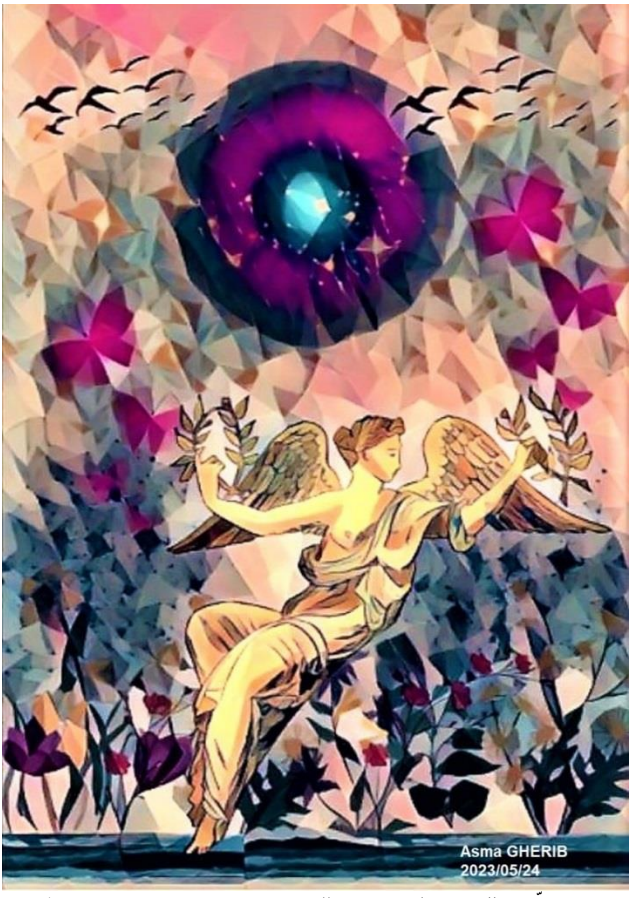

اللّوحة ١٧: انتصار صقيل الرّوح وصعودها إلى الفردوس
٢٠٢٣/٠٥/٢٤

المُحتَويات

الفصل الأوّل: مهمّة جديدة؛..... ١٣
الفصل الثّاني: الفتاة الأزليّة؛..... ٢٥
الفصل الثّالث: أرضُ مصر؛..... ٣٧
الفصل الرّابع: إكسير الإمام؛..... ٤٧
الفصل الخامس: رأسي في الدّلو؛..... ٥٥
الفصل السّادس: صحراء جديدة؛..... ٦١
الفصل السّابع: أسرار هيروغليفيّة؛..... ٨١
الفصل الثّامن: سرُّك الّذي في قلبكَ؛..... ١٠١
الفصل التّاسع: سيّدة الهيكل الملكيّ؛..... ١١٥
الفصل العاشر: مقالات الأستاذ هيثم كاظم المحمود؛..... ١٢٥
ملحق اللّوحات؛..... ١٦٧
المحتويات..... ١٨٧

دار الفرات للثقافة والإعلام – العراق – بابل
بالاشتراك مع دار سما للطبع والنشر والتوزيع
Al-Furat House for Education and Information
Iraq – Babylon